حكومة إقليم كوردستان – العراق
وزارة التربية
المديرية العامة للمناهج والمطبوعات

علم الاخلاق

المرحلة الرابعة

المدارس الاسلامية

تأليف

د.قاسم غفور د.مسعود محمد علي

المراجعة اللغوية

عبدالله عبدالرحمن بابان

الطبعة الأولى ١٤٣٨ هجري ٢٧١٦ كوردي ٢٠١٦ ميلادي

الإشراف العلمي على الطبع:عبدالله عبدالرحمن بابان
الإشراف الفني على الطبع :عثمان پيرداود كواز – ئارى محسن احمد
تصميم الغلاف : عثمان پيرداود كواز
التنضيد الألكتروني : ريڤين راغب حسين
تصميم المحتوى :ريڤين راغب حسين

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب الخلق العظيم، وعلى آله وصحابته الغر الميامين، الذين شرفهم الله تعالى بصحبة خير خلقه، وجعلهم أئمة يهدون به، وعلى جميع المسلمين الذين اقتدوا بهم إلى يوم الدين، وبعد:

فالأخلاق موضوعة في الطبع ومعقلها في الصدر، ومنها ما هو جبلِّي تفضل الله به على عباده على قدر منازلهم عنده، فمن زاده منها، ظهر عليه حسن معاملته مع ربه، وحسن معاملته مع خَلْقه على قدر تلك الأخلاق، ومنها ما يكون بطرق الكسب والتعوّد، وتكلف النفس، وريضتها.

وعلم الأخلاق هو علم التصوف بعينه وهو من العلوم الشرعية في الإسلام وهو مهمة جميع الرسل الكرام-عليهم الصلاة والسلام- ودعوة سيدنا إبراهيم الخليل-عليه السلام- كما حكى -عزو جل- حيث قال:((رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) (سورة البقرة : ١٢٩)، واستجابة لهذه الدعوة الكريمة وسمو خلقه وتواضعه قالﷺ (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ).

وقد تطرقنا هنا إلى مباحث تتكون من مقدمات نفيسة لهذا العلم الشريف مع ذكر الأدلة من القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأقوال الأئمة من العلماء، ليستفيد منه طلاب العلم في المدراس العلمية، ونرجو من الله تعالى أن يتقبل منّا بقبول حسن إنه سميع قريب وبإجابته قدير، وصلى الله وسلم على روح سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلفون

الفصل الاول

الدرس الأول

نشأة علم الأخلاق وتطوره

ان علم الأخلاق وعلم التصوف والسلوك مرجعه الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين الإسلامي، إذ هي: مقام الإحسان الذي هو أحد الأركان الثلاثة التي جعلها النبي ﷺ منهجاً للمسلمين بعد ما بيّنها واحداً واحداً بقوله: (هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ), وهو الإيمان والإسلام و الإحسان.

فالإسلام : طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان : مقام مراقبة ومشاهدة: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأمّا نشأة هذا العلم ومصدره فهو ما رواه عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ :كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ (إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَلْزَقَ رُكْبَتَهُ بِرُكْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)، قَالَ: فَمَا الْإِسْلَامُ؟، قَالَ: (شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَحَجُّ الْبَيْتِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ) ، قَالَ: صَدَقْتَ، فَمَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: (تَعْبُدُ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَرَهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)

قواعد الأخلاق وفضيلتها وتعريفها

لا بد من معرفة حقيقة الشيء وماهيته قبل الخوض في تفاصيل مسائله:

أولاً: تعريف قواعد الأخلاق.

ثانياً: موضوع علم الأخلاق.

ثالثاً: فائدته وثمرته.

تعريف قواعد الأخلاق

القواعد في اللغة: جمع قاعدة، وهي الأساس، قواعد البيت تعني أساسه, قال تعالى: ((وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)) (سورة البقرة:١٢٧).

في الاصطلاح: قضيةٌ كليةٌ منطبقةٌ على جميع جزئياته.

الأخلاق في اللغة: جمع خلق وهي : الدين والطبع والسجية.

وفي الاصطلاح: هناك تعاريف كثيرة ومنها ما عرّفه الإمام أبو حامد الغزالي–رحمه الله–: بقوله: (هيئة راسخة للنفس تصدر الأفعال بسهولة من غير حاجة إلى فكر و روية).

فإن كانت الهيئة تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة سميت خلقاً حسناً، وإن كانت الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيأة خلقاً سيئاً.

والهيئة الراسخة شرط للخلق سواء كان حسناً أو سيئاً، لأن من يصدر عنه بذل المال على الندرة لا يسمى سخياً، لأن بذل المال شيء والسخاء شيء آخر، وربما شخص خُلُقُه السخاء لا البذل، وكذلك من تكلَّف السكوت عن الغضب لا يقال خُلُقُه الحِلْم.

إذن فالأخلاق ملكة للنفس تصدر عنها الأفعال من غير تكلف.

تعريف علم الأخلاق: فهو علم يعرف به كيفية اكتساب الفضائل وهي الاعتدال في قوى النفس وأوصافها والتوسط فيها.

وأما موضوع علم الأخلاق: فهو الملكات النفسانية من حيث تعديلها بين إفراط وتفريط.

وفائدته: فهي التعرُّف على رذائل النفس البشرية وعلاجها والتوسط في قواها، لتصبح فضائل يكون العبد بها مثالاً للهداية والرشاد كما أراده الله تعالى ابتغاء لمرضاته(جلّ شأنه).

الدرس الثاني

(أسماء هذا العلم)

من أسماء هذا العلم:

١-علم التزكية: لغة من (زكا) وذلك بمعنى: النمو والبركة والطهارة والصلاح والثناء الجميل.

وبهذه المعاني التزكية: هي التطهير والإصلاح، ومنها قوله تعالى: ((وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)) النور/٢١ .

وقوله تعالى: ((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)) الشمس/ ٩.

وقوله تعالى: ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)) الجمعة/٢، أي يحملهم على ما يصيرون به أزكياء طاهرين من خبائث العقائد والأعمال .

٢-التربية الروحية: هي التربية التي تعمل ضمن منهج قرآني إلى تملك القدرة النفسية بطريقة المجاهدات لتسخيرها طواعية في تطبيق حقائق الأمور الشرعية باطمئنان ورضا ويقين.

وذلك منه قوله تعالى: ((وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)).

٣-علم التصوف والسلوك: التصوف: اسم يطلق على الطرق إلى الحق تعالى، يسلكها الصوفي والمتصوفة، وهو المجاهدة المستمرة والمراقبة الدائمة لإزالة جميع أشكال الأخلاق الذميمة عنه وتخلّيه عنها، وإقامة الخصال الحميدة الرفيعة وتحلّيه بها.

قال أبو قاسم الجنيد البغدادي-رحمه الله- التصوف: هو الفناء في الله والبقاء بالله.

والتصوف طريق مفتوح إلى المعرفة الربانية وعمل دائب جاد، لا محل للهزل واللهو والعبث فية، وأصله: الاعتصام بأسس الدين بقوة، ومراعاة أوامرة ونواهيه بدقة مجانبة حظوظ النفس قدر المستطاع، بملازمة الجوع واليقظة.

الدرس الثالث

موضوع علم التصوف وفائدته وأساسه

موضوع علم التصوف وفائدته وأساسه:

موضوعه: رفع الإنسان إلى مستوى الحياة القلبية والروحية وتصفية القلب، وتوجيه اللطائف إلى مراجعها الأصلية.

فائدته: تحفيز الإنسان لتنمية جوانبه الملكية واستشعار الإيمان الإجمالي والبدائي كرة أخرى كشفاً وذوقاً والعيش فيه.

أساسه: ان أساس التصوف هو الرعاية لآداب الشرعية ظاهراً والوقوف على تلك الآداب باطناً.

وتعميق الشعور السطحي وترسيخه بالمواظبة على العبادة والطاعة وجعله جانباً مهماً لطبيعة الإنسان وبلوغ الروحانية المنضبطة والوصول إلى أقصى مراتب السعادة في الدارين.

أركان علم التصوف:

بناءً على تعريفه وموضوعه وأساسه فيمكن أن نقول أن أركانه على النحو الآتي:

١- بلوغ مرتبة التوحيد الحقيقي بطريقي النظر و الاستدلال والشهود والكمال.

وهو: أن يستقر فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجائة والتوكل عليه ويمتلئ من ذلك كله، وهذا هو الوصول إلى حقيقة التوحيد وهو معنى قول لا إله إلا الله.

٢-قراءة الأوامر الإلهية بتدبر معانيها، وفهمها على الوجه المطلوب.

٣-الإمتلاء بمحبة الحق سبحانه، والنظر لأجله إلى الموجودات أنها مهد الأخوة والقيام بحسن المعاشرة مع الناس جميعاً، بل مع كل شيء موجود مدرَك.

٤-العمل بروح الإيثار في كل وقت بتفضيل الآخرين قدر المستطاع على النفس.

كما قال تعالى: **((**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**))** (سورة الحشر: ٩).

٥-تقديم مراد الله تعالى على مراده.

٦- محاولة عدم نسيان ذكر الله تعالى ولو للحظة واحدة، كما قال تعالى: ((وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ**))** (سورة الأعراف: ٢٠٥).

اشتقاقه:

أصل اشتقاق لفظة التصوف، قديماً وحديثاً على النحوي الآتي:

١-صوفة: ينسب التصوف إلى كلمة صوفة، لأن الصوفية لا تدبير لهم سلموا أمرهم لمولاهم، فهم كالصوفة المطروحة.

٢-أهل الصفة: لأن أهل الصفة منقطعون إلى الله تعالى ولزموا الفقر، فبنيت لهم صفة وزاوية في مسجد رسول الله ﷺ

٣-الصفاء: ونسبة التصوف إليه لصفاء الظاهر والباطن.

٤-الصف الأول: كان الصوفي في الصف الأول بين يدي الله تعالى في العبادة والخضوع.

٥-الصوف:وكان لاختيارهم لبس الصوف، و يقال: لغة تصوف إذا لبس الصوف، كما يقال: تقمص إذا لبس القميص، والاشتقاق الأخير هو الراجح عند المحققين، لكن جميع ما ذكر من المعاني تندرج تحت علم التصوف ومراتبه وقواعده.

و انَّ الصُّوفَ من لباس الْأَنْبِيَاء وزِيِّ الْأَوْلِيَاء قال الْحسن الْبصرِيّ-رحمه الله- (أَدْرَكْت سَبْعِينَ بَدْرِيًّا مَا كَانَ لِبَاسُهُمْ إِلَّا الصُّوفَ).

الدرس الرابع

علم التصوف من حيث المنشأ

ان الله تعالى أتمّ نعمته على نبيّه ﷺ وأكمل دينه حيث قال: ((الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)) (سورة المائدة:٣)، وهذا الوصف من أوصاف الكمال الذي امتازت به الأمة المحمدية، قال أبو القاسم القشيري –رحمه الله–(والمسلمون بعد رسول الله ﷺ لم يتسمّ بتسمية أفضل من (الصحابة) وذلك لشرف صحبتهم برسول الله ﷺ ولما أدركهم أهل العصر الثاني ممن صحب أصحاب رسول الله ﷺ تسمّوا بـ (التابعين)، ثمّ قيل لمن بعدهم (أتباع التابعين)، ولما فشا الإقبال على الدنيا، وتباين الناس واختلفوا، فقيل لمن كان له عناية بأمر الدين: (العابد والزاهد)، ثمّ ظهرت البدع فادعت كل فرقة ان فيها عباداً وزهاداً، فانفرد أهل السنة والجماعة باسم (التصوف)، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المئيتين من الهجرة).

وكذلك لم تدون الاحكام الشرعية والعلوم الإسلامية في العهود الأولى في تأريخ الإسلام، وإنما كانوا يحفظونها عن ظهر الغيب، فتظل مطبوعة في أذهانهم، كالعقائد والفقه وأصوله وعلوم التزكية والتصوف وعلوم الآلة كالنحو والصرف، وتكرر كثيراً وتعزز بالمزاولة والتطبيق العملي.

ومن هذه الناحية ما كان في جمع وتصنيف وتبويب هذه العلوم والأحكام الشرعية أية صعوبة تذكر.

ومن ناحية أخرى فإن فروع العلوم المذكورة لكونها من المسائل الحياتية التي لابد أن ينشغل بها كل مسلم فقد تناول العلماء مقدماً تلك الحقائق المحفوظة في أذهانهم وصدورهم، ودونوا رسائل وكتباً تتعلق بكل باب من تلك الأبواب، فاشتغل الفقهاء بتصنيف كتب الفقه والمحدّثون بتدوين السنة وحفظها وعلماء الكلام بترصين مسائل العقيدة والمفسرون بتأليف التفاسير وعلوم القرآن، وعلماء التزكية بالأخلاق وعلم التصوف وتغذية الروح وتهذيب النفس، وبذل كل منهم في ساحته جهداً فاق الآفاق لإبراز حقائق الإسلام.

قال ابن تيمة في رسالته عن التصوف: (ولم يكن لفظ (الصوفية) مشهوراً في القرون الثلاثة الأولى وإنما اشتهر بعد ذلك وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام (الحسن البصري–ت:١١٠هـ) و(سفيان الثوري–ت:٩٧هـ) والإمام (أحمد بن حنبل–ت:٢٤١هـ) و(أبي سليمان الداراني–ت:٢١٥هـ)رحمهم الله).

وقد صنفوا في علم التصوف آثاراً جليلة كل في ميدانه، كما أن التصوف بمرجعية القرآن الكريم والسنة الشريفة أظهروا اجتهاداتهم في مسائل استخرجوها من هذين المصدرين الأساسيين مما يتعلق بالرياضة والمجاهدة والحال والمقام، ودونوا معها حياتهم الروحية الخاصة بهم، والتي توافق السيرة الزكية لحضرة خير البرية––لكون حركات الصوفية وسكناتهم كلها مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، كما نصّ عليه الإمام الغزالي–رحمه الله–في كتابه المنقذ من الضلال.

وفي الحقيقة فإن القصد في جميع الأحكام الشرعية هو الوصول إلى مرضاة الله تعالى بمراعاة أوامره ونواهيه لذلك يجب تأصيل ميزان شرعي يوزن به طريق الوصول تجنبا للإفراط والتفريط.

قال ابن خلدون- رحمه الله -(ت:٨٠٨هـ) : (فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية).

وأول من اشتهر باسم الصوفي هو (أبو هاشم الصوفي الكوفي)- رحمه الله - الذي توفي سنة(١٥٠هـ).

وأول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو العارف بالله (ذو النون المصري)- رحمه الله - سنة(٢٤٥هـ) ثمّ بوبها ونشرها الإمام (أبو القاسم الجنيد البغدادي)- رحمه الله - المتوفى سنة(٣٣٤هـ).

بناءً على ما تقدّم بيانه فإن الأسماء والألقاب في القرون المفضلة كانت الصحابى ثم التابعي ثم تابع التابعي ثم الزهاد ثم الصوفية، إلخ.

٤-المعالم الروحية:

وهو العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس و تهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية، ويدعو إلى كمال الإيمان والحصول على درجة الإحسان، والتخلق باخلاق النبي- صلى الله عليه وسلم-في صفاته الباطنية وكيفياته الإيمانية.

أسئلة حول المسائل السابقة:

س١: تحدثْ عن علم الأخلاق من حيث:

١-نشأة علم الأخلاق والسلوك.

٢-تعريف الأخلاق لغة واصطلاحاً.

٣-أسماء هذا العلم.

٤-اشتقاق لفظ(التصوف).

س٢: عدد أركان علم التصوف.

س٣:من هو أول شخص كتب نظريات علم التصوف؟

الدرس الخامس

أولويَّةُ الأخلاق وضرورتُها في الإسلام

عُرِّفت الأخلاقُ كثيراً لكن التعريف الدقيق هو ما قاله الإمام الغزالي:(واعلم أنَّ كلَّ عملٍ يعملُه الإنسان من خيرٍ أو شرٍّ فإنه . وإن قلَّ . يؤثِّر تأثيراتٍ في قلبه، ويُعرَض عليه ذلك التأثيرُ في صحيفتِه يوم القيامة، وتسمى تلك التأثيرات أخلاقاً).

مادامت الأخلاق صفةُ القلبِ بالذات ثم للجسم تبعاً يمثِّل الإمامُ – رحمه الله – تمثيلاً محسوساً للقلبِ ويبيِّن كيفيَّةَ تأثُّرِها بالأخلاق فيقول:(وقلبُ المؤمنِ بمنزلةِ المرآةِ المصقولةِ، والأخلاقُ الذميمةُ من الحسد والشماتة والكِبْرِ والإيذاءِ والحيلةِ المكْرِ والخيانةِ والرياءِ والعُجْبِ والنفاقِ والغلِّ وما ضاهاها. أي: وما شابهها . بمنزلةِ الدخانِ والظلمةِ التي تُصيبُ المرْآةَ فتُسوِّدُها وتَجعلُها محجوبةً من الله في الآخرةِ والعياذُ بالله.)

والأخلاقُ الحسنة من القناعةِ والحياءِ والصبرِ والكَرَمِ والمعرفةِ والعلمِ والعقلِ والحكمةِ والصلاحِ وما شابهها بمنزلةِ أنوارٍ تُصيبُ المرْآةَ فتُزيلُ عنها ظلماتِ المعاصي وسوءِ الأخلاقِ القبيحة؛ إشارةٌ إلى قولِه . تعالى .:((إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)) سورة هود:١١٤.

ثم قال حول حسْن الخُلُق وسوء الخُلُق:(.... فاعلم أنَّ للإنسانِ صورةٌ باطنةٌ وهي التي بُعِث الأنبياءُ . عليهم الصلاةُ والسلام . لتقويمِها وتزكيتِها وكمالِ اعتدالها وذلك أنْ تصدُرَ عنها الأخلاقُ المحمودةُ بسهولةٍ... وهذا هو حقيقةُ حسْنِ الخُلُق، وسوءُ الخُلُقِ يكون بعكسِ ذلك).

ذكر علماءُ الأخلاق كثيراً حول أهميَّة الأخلاق منهم الإمام الغزالي – رحمةُ الله عليه –حيث يقول:(اعلم أنَّ السعادة كلَّها والباقياتِ الصالحاتِ أجمعَها التي تبقى معك إذا غرقتْ سفينتُك . شبَّه الإمامُ انتهاءَ الحياةِ) بغرقِ السفينةِ في شيئين:

الأوَّل: سلامةُ القلبِ وطهارتُه من غيرِ الله . تعالى .، . إشارةٌ إلى أن التخلية من الرذائل مقدَّمٌ على التحلية بالفضائل لذا قدَّمها على المعرفة . لقولِه:((إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)) الشعراء: ٨٩.

الثاني: امتلاءُ القلْبِ بمعرفةِ اللهِ . تعالى . التي هي المقصودةُ من خلْقِ العالَمِ وبعثةِ الرُّسُل ﷺ.

إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ خلَق الإنسانَ، ليكون خليفتَه في الأرض، وأوَّلُ شيءٍ في هذه الخلافة أن يعرفَ ربَّه حقَّ المعرفةِ ، قال تعالى: ((اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا)) الطلاق:١٢. وثاني شيءٍ في هذه الخلافة أنْ يعبُدَه، قال . تعالى .:((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)) الذاريات:٥٦.

وحُسنُ الخُلُق: هو الجامعُ لهما . من سلامة القلب ومعرفتِه اللهَ .، ولا أعلمُ خصلةٌ تزيدُ عليهِ في الفضلِ؛ ولذلك امتدح اللهُ . تعالى . به نبيَّهُ محمَّداً ﷺ فقال:((وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)) القلم:٤.

أسئلة نموذجيَّة حول الدرس:

١- عرِّف الأخلاق.

٢- ما هي حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق؟

٣- السعادة مربوطةٌ بشيئين، ما هما؟

الدرس السادس

اقتران حقوق الإنسان والأخلاق بالإيمان

ومما يدلُّ دلالةً واضحةً على جديَّةِ الإسلامَ بالأخلاق أنه وضَعها في صفِّ العقيدةِ بحثاً كما نرى القرآنَ قد يسجِّل دعوةَ بعضِ الأنبياء في البداية لأمورٍ فرعيةٍ لا تُعد من أصولِ الإيمان والعقيدة، وذلك مثلُ قولِه . تعالى .:((وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)) الأعراف: ٨٠، فالآية تبحث عن فاحشة اللواط فهم ليسوا بمؤمنين بعدُ، وقال في شأن قوم شُعَيب . عليه السلام -: ((وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)) هود: ٨٤، فالآية تبحث عن الكيلِ والوزن وهو من فروع الشريعة، والقوم لم يؤمنوا بعدُ، وقال في أهل الكتاب الذين لم يعبدوا الله حقًّا:((وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)) آل عمران: ٥٠-٥١، فالآية تبحث عن الحلال والحرام مع قومٍ لم يستسلموا لدينِ الله بعدُ.

بل القرآنُ نفسه في العهد المكي تحدَّث مع قريش بمثلِ هذا كما قال: ((وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)) التكوير: ٧-٨، ((وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)) المطففين: ١-٣، ((كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)) الفجر:١٧-١٨،((أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)) الماعون:١-٣، هذه الآيات كلُّها نزَلتْ في مكةَ، والخطابُ فيها موجَّهٌ للمشركين.

فهؤلاء الأنبياء تحدثوا مع قومهم بقضايا ليست من أصول الدين، وقبل إسلامهم، مع أن القرآن يقول: ((وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)) المائدة:٥، بمعنى أنَّ هذه الفرعيات لو استجابوا لها فإنها لا تُقبَل منهم، فلماذا يتعب الأنبياء أنفسهم فيها؟! أو ما الحكمة في بحْثِ فروعِ الشريعة مع أقوامٍ كانوا كافرين؟!

والجواب الحق – والله أعلم – إن احترام الإسلام للإنسان يقترن عنده مع أولويات الدين نفسِه، لأنَّه لا يمكن أن يحقِّقَ الإسلامُ غايتَه في مجتمعٍ يسُودُه الشذوذُ، والأنانيةُ، والظلمُ، ولهذا فمحاربةُ الإسلام للظلم بكل أنواعه السياسية والاقتصادية وغيرِها مطلوبٌ مع دعوته إلى الإيمان والتوحيد، فإنه في الحرية والعدالة يستطيع الإنسان أن يفكِّر، وأن يحاور، وأن يقتنع

بالمنهج الذي يراه، وعلى هذا فالمطالبة بالحرية لهذا الإنسان لا ينبغي أن تؤجل عن دعوته إلى لا إله إلا الله محمد رسول الله، هذا أوَّلاً .

وثانياً: فإن الحديث عن بعضِ مبادئِ الإسلام وأخلاقِه من شأنه أن يقود إلى الرغبة في التعرُّف على عقيدتِه وأصولِه، فالمرأةُ وهي في المطبخ وتسمع سيدنا محمداً ﷺ يقرأ في صلاته: ((وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)) التكوير:٨-٩. سيحرِّكها هذا إلى أن تترك المطبخ قليلاً لتصغي إليه، وهكذا قُل في العبيد والأيتام والمحرومين – والله أعلم – وهذا أكبر دليلٍ على زيادةِ اهتمام القرآن بالأخلاق بأسلوبٍ دقيقٍ نادرٍ.

سؤالان نموذجيان حول الدرس:

١- وضَع القرآن الأخلاق في صفِّ العقيدةِ بحثاً، مثِّل له.

٢- ما الحكمة في بحْثِ فروعِ الشريعة مع أقوامٍ كانوا كافرين ؟

الدرس السابع

أصولُ العدل والأخلاق الفاضلة وآثارها

ذكر علماءُ الأخلاق أنَّ القوى التي هي منشأُ الخيرِ والشرِّ ثلاثةٌ: وهي القوةُ الشهويَّةُ، والقوَّةِ الغضبيَّة، والقوةُ العقليَّة، ولكلٍّ منها طرَفَا إفراطٍ أي: تجاوزٍ وتفريطٍ أي: تقصيرٍ، ووسطٍ وهو العدلُ.

وأصول الأخلاقِ الفاضلة ثلاثةٌ:

والأول: اعتدالُ القوَّةِ النطقيَّة الإدراكيَّة الظاهرة والباطنةِ وهي الحكمةُ، واعتداله بالعلمِ والحكمةِ وحقيقةُ الحكمةِ الصدقِ في الأقوالِ وتمييز الحقِّ من الباطل في الاعتقادات، ، والحسَن من القبيح في الأفعال.

ومن فروعِها تعلُّمُ جميعِ العلومِ والصنائعِ وتصديرُ التدبيرِ وجودةُ الذهن لدقائقِ الأعمال، وخفايا آفات النفس.

وللقوة الإدراكية إفراطٌ وتفريطٌ، وإفراطُها ا بأن يتجاوزَ حدَّ البرهان والعيانِ، وتفريطُها البلهُ والغباوة والحمقُ والجنون، فأما الغباوة: فهي قلَّةُ التجربةِ، والحمقُ: صحةُ القصد مع فسادِ السلوك، والجنون: فسادُهما جميعاً.

والثاني: اعتدالُ القوَّة الغضبيَّة وهي الشجاعةُ، وهي خُلِقت لدفعِ الضرر فكمالُها واعتدالُها أنْ تكونَ منقادةً للحكمةِ إنْ أشارتْ لها بالاسترسال استرسلتْ أو بالانقباض انقبضتْ، ويصدرُ عنها الكرمُ والنجدةُ وكظمُ الغيظ والوفاء بالعهد، ومن فروعِها أيضاً القصاص والجهاد مع النفس وإقامةِ الحدود الشرعيَّة كحدِّ الزنا حسب الشروط المقرَّرة في الفقه الإسلاميِّ.

وللقوة الغضبيَّة إفراطٌ وتفريطٌ، وإفراطُها التهوُّرُ بأن يجاوزَ حدَّ الشرْعِ ، ويصدر أيضاً عنه التكبُّر والعُجْبُ، وتفريطُها الجُبْنُ ويصدر عنه أيضاً المهانةُ والذلَّةُ والجزع مع تناول الحقِّ الواجب.

الثالث: اعتدالُ القوَّةِ الشهويَّة وهي العِفَّةُ وهي خُلِقتْ مطيعةً للعقل فحُسنُها واعتدالُها في إذعانها للعقل والحكمة، ومن فروعِها الوطءُ الحلالُ والكفُّ عن الزنا أو أكْلِ الحرام أو الشُّبهةِ ، ويصدر عن الاعتدال السخاءُ والصبرُ والورعُ، ومن فروعها أيضاً المعاملاتُ كالبيع والإجارةِ مع رعاية الشروط.

وللقوة الشهوية إفراطٌ وتفريطٌ، وإفراطُها الفجورُ بأن يشتهيَ كالبهائمِ، ولا يراعي قانون الدين ويصدرُ عن الإفراط أيضاً الحرصُ والشرَهُ، وتفريطها الخمودُ بأن لا يبقى الشهوةُ، ويصدرُ عن التفريط الحسدُ.

ومجموعُ العفَّة والشجاعة والحكمة عدالةٌ، وهذه الثلاث أمهاتُ محاسن الأخلاق وما سوى ذلك فروعٌ. وغايةُ علمِ الأخلاق تحقيقُ هذه العدالة في تلك القوى، والابتعاد عن طرَفَيِ الإفراط والتفريط بقدَر الطاقة البشريَّة، وهو المرادُ بتزكية النفس التي قال الله . تعالى . في حقِّها:" قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى" الأعلى: ١٤، وقال ((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)) الشمس:٩. وقال في طرفِ حديثٍ:(أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: بابُ فضل مَن استبرأ لدينه، رقم(٥٢):١/٢٨.

أسئلة نموذجيَّة حول الدرس:

١- ما هي أُصول الأخلاق الفاضلة؟

٢- أذكر آيتين حول الأخلاق الحسنة .

٣-اذكر حديثاً حول إصلاح القلب.

الدرس الثامن
أصول الأخلاق الرديئة وآثارها

القوةُ العقليَّة والقوَّةِ الغضبيَّة، والقوةُ الشهويَّةُ، إذا انحرفتْ إفراطاً أو تفريطاً تنشأ منها الأخلاق الرذيلة من الكِبْرِ والحسَدِ والحرصِ أي: الطمع، وهذه الثلاثة هي أصولُ المفاسِدِ ومثارُ الشقاء. ولْنفصِّل ما يتفرَّعُ عن تلك الخصال الثلاث:

وبيانُ ذلك: أولاً الكبر ويترتب منه:(آثارُهُ التي تنشأُ عنه عجْبُ المرءِ برأيِ نفسِه، والأنفَةُ عن قَبولِ الحقِّ، وترْكُ الإقرار به، والتعدِّي على الغيرِ، والظُّلمِ والجَوْرُ عند المقدِرةِ، وترْكُ الإنصاف في المعاملة، والتهاوُنُ في الواجبات، والإعراضْ عن أداءِ الحقوق، وصلابةُ الوجهِ في دفعِ الحقِّ، والفحشُ والسفاهةُ في الخطاب، واحتقارُ الناس والاستطالةُ عليهم، والإنكار لفضْلِ مَن فضُلَ عليه، والبغيُ والعدوان وما شابه ذلك، هذه فروعُ الكبْرِ ولوازمُه.

أما الحرص: وهو الخصلةُ الثانيةُ، فمِن آثارِهِ التي تترتَّبُ عليه الطمَعُ الكاذب، وشدَّةُ الرغبة والعجلةُ في السعيِ وتعَبُ البدنِ، وكدُّ الروحِ في الجمعِ والادِّخارِ، والاحتكارُ من خوفِ الفقر، والبخلُ والمنعُ والشُّحُّ، والغشُّ والمكرُ في المعاملة، وسوءُ الظنِّ بالأمين، والخيانةُ في الأمانة، وطلبُ الحرامِ، وهتْكِ الحُرُمِ، وارتكابُ الفحشاءِ، والكذبُ، وكثرةُ الحيَلِ في البيعِ والشراء، واليمينُ الكاذبة، وأقاويلُ الزور في أسباب الخصومات، وما شاكلها من الخصال المذمومة، هذه فروعُ الحرصِ ونتائجُه.

أما الخصلةُ الثالثة وهي الحسد: فمِن آثارِه: الحقْدُ والغلُّ، وهذه الخصلة تدعو إلى العداوة والبغضاء، والبغيِ والغضب، وقساوةِ القلبِ وقلَّةِ الرحمة، والطعن واللغو.

وكثيراً ما تكون هذه الخصال سبباً للخصومةِ والحربِ والقتال جهراً إن أمكن، وإن لم يمكن بالجهر فبِالحِيَل والخِدَاعِ، والغدرِ والخيانةِ، والغيبةِ والزورِ والبهتان، والنفاقِ والرياء، وتشتيت الشملِ وقطيعةِ الرحم، وعذابِ الأرواحِ، وألَمِ القلب، وتنغيصِ العيشِ، نعوذ بالله من كلِّ ذلك).

وهذه الأصول الثلاثة نستطيعُ أن نأخذَها من قصَّةِ سيِّدِنا آدمَ ـ عليه السلام ـ:

أما الكبْرُ والحسد وما ترتَّب عليهما من الطرد الأبديِّ واللعن، فقد بيَّنهما الله تعالى بما قصَّ علينا من قولِ إبليس، ففي شأن كبرِ إبليس يقولُ – سبحانه –:((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا)) الإسراء:٦١، فقولُه:((قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا)) يدلُّ صراحةً على كِبْرِه تجاهَ سيِّدِنا آدم، وكذا –قولُه تعالى– ـ:((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)) البقرة: ٣٤، فقولُه:((أَبَى وَاسْتَكْبَرَ)) يدلُّ صراحةً على كِبْرِه تجاهَ سيِّدِنا آدم. وقولُه: ((قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)) الأعراف:١٢، فقولُه: ((أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)) صريحٌ في تكبُّرِهِ وصريحٌ في سببِ عدمِ سجودِه.

وفي شأن حسَدِ إبليسَ يَحكي لنا ـ سبحانه ـ موقفَ إبليس حيث:((قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا)) الإسراء:٦٢، وقولُه:((لَأَحْتَنِكَنَّ)) أي: لأستولَيَنَّ عليهم أو لأستأْصِلَنَّهُم بالإغواء، فهو يدلُّ صراحةً على حسَدِه لبني آدم. ويحكي لنا موقفاً آخر في قولِه ـ تعالى ـ:((قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ

لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ))الحجر:٣٩. ((لَأُغْوِيَنَّهُمْ)) أي: لأحملنَّهم على الغوايةِ والضلال. وقولُه:((لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ)) و ((لَأُغْوِيَنَّهُمْ)) صريحٌ في حَسَدِه لبني آدم.

وفي شأنِ الحرصُ، يؤخذ من قولِه . تعالى .:((وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (﴿٣٥﴾) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ)) البقرة: ٣٥.٣٦، يؤخذ في الآيتَين درسا تعليميّا لبني آدم أنَّ فيهم غريزةً من الحرصِ، مع بيانِ أنَّ الشيطانَ لا يتمكَّنُ منك إلا بواسطتِها، فيتحتم عليك ملاحظتُها والاحتراس منها.

أليس من أعجب العجب أن تشملَ هذه القصَّةُ على علْم الأخلاق بحذافيرِه؛ إذْ هو راجعٌ بكلِّ فروعِه إلى هذه القوى الثلاثةِ كما هو معروفٌ؟!.

أسئلة نموذجيَّة حول الدرس:

١- ما هو أُصول الأخلاق الرذيلة؟

٢- أذكر آية حول كبر إبليس .

٣- اذكر آيةً حول حسد إبليس.

الدرس التاسع
دور الأنبياء في ترسيخُ العدل

إن الأنبياء – عليهم السلام – مظهرٌ لصفة الله الهادي يُخرِجون الناسَ من ظلمات الباطل إلى نور الحق ومن ظلمات الكفرِ والأفكار الدنيَّة إلى نور الإيمان، ومن ظلماتِ الشك إلى نورِ اليقين، ومن ظلماتِ الجهل إلى نورِ العلْم، ومن ظلماتِ الباطل إلى نورِ الحقِّ:((هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)) الحديد: ٩.

وهم – عليهم السلام – مظهرٌ لصفة الله المقسِط أي: العادل؛ لأن العدل أساسُ بقاءِ الوجود، فهذا العالَم بما فيه قائمٌ على نظامِ التوازن، فكما أنه يوجَد هذا التوازنُ المحيِّر في هذا العالَم المادي، لابدَّ من وجودِ هذا التوازن نفسِه في العالَم الأخلاقي والروحاني، وهذا هو التوازن الذي يسمى بالقسط والعدل في قولِه:((وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)) الرحمن: ٧– ٩، هل يمكن أنْ نتوَّهم أنَّ الميزان المذكور الذي وضَعَه الله مع رفع السماء في قوله:((وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)) هو ما يوزن به الأشياء المادية ؟!!، لا ريب أنَّ السياق لا يسمح لذلك بل هذا الميزان هو ميزان معرفة الحق.

كما لو زاد أو نقص النظامُ الماديُّ في الكون لاختلَّ نظامُ الدنيا بأسرها، كذلك هو حالُ أمنِ واستقرارِ هذا العالَم الأخلاقي الإنسانيِّ، والاستقامة الحقيقية لا تكون إلا بميزان هذه الشريعة وغيابُ الشريعة الإلهيَّة يختلُّ بالنظام الأخلاقي نفسيًّاً أو ظاهريًّاً كما هو المشاهد، يقول ـ تعالى ـ ((لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَوَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)) الحديد:٢٥، لا يمكن أن نظنَّ أنَّ الميزانَ المقرون بالكتاب في قولِه:((مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ)) هو ميزان البُرِّ والشعيرِ والذهب والفضة ؟!! كلاَّ بل هو ميزانُ معرفةِ الحق.

إذن من أهدافِ بِعْثةِ الأنبياء هو جعْلُ الناسِ يقيمون العدلَ والتوازن طبقاً لميزان الشريعة حتى يستقرَّ الأمن في هذا العالَم بهذا العدل.

نسمع هنا وهناك أثاروا الشكوكَ والشبهاتِ حول أهميةِ بعثة الأنبياء والرسل، وضرورةِ إتباع تعاليمهم، وبِغَضِّ النظر عن المناقشة، فلْيقوموا بتحليل كلِّ الأرجاء المعمورة تحليلاً عملياً مُنصِفاً حتى يجدوا أنَّ كلَّ نورٍ من الصدق والعدل، وأن ما يوجَد اليوم من عدلٍ في العالَم فهو ليس من أثرِ حكيمٍ يونانيٍّ، أو من تأثير تعليم فلاسفة أوربا، بل هو نتيجةٌ مباشرةٌ أو غيرُ مباشرةٍ من تعاليم الأنبياء والرسل–عليهم السلام– وإن ما نجد في العالَم من مُبلِّغين ـ مهما كانوا منْحرِفين – يدْعُون إلى شعاراتِ الخير البَرَّاقة والمساوات والإصلاح، فكلُّ تعاليمِهم هذه مستمدةٌ من تعاليم هؤلاء الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله للناس قبل هؤلاء الحكماء والفلاسفة والمبلِّغين.

وإن ما ناله الملحد من الخير وحقوقِ الإنسان هو من فيضِ تعاليمِ الأنبياء والرسل، وعلي هذا إنَّ مَن لا يؤمن بالأنبياء والرسل عقلياً فهو يؤمن ويقِرُّ بهم عملياً، وذلك من خلال إتباعه اللامباشر لتعاليمهم ـ رغم جحوده – لراحةِ دنياه.

ولهذا يُوصَف القرآنُ والكُتُبُ السماويةُ بأنها نورٌ ورحمةٌ وهدى، وتوصيفُها بتلك الصفات توضيحٌ وتفسيرٌ لهدف النبوة، ومَن كانت رسالتُه رحمةٌ وهُدى ونور فهو نفسُه هُدى ورحمةٌ ونورٌ أيضاً؛ ولهذا وصف القرآنُ الأنبياءَ والرسلَ بأنهم كانوا أئمةً وقدوةً في زمانهم ((وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا))الأنبياء:٧٣، ولذا وصف سيِّدَنا محمد ﷺبالرحمةِ للعالَمين: ((وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)) الأنبياء: ١٠٧ .

فما من إنسانٍ عبْرَ التأريخ البشريِّ ـ أيّاً كان وأينما كان على معرفةٍ بعظمةِ اسمِ الله ـ مهما انحرف ـ أو يستطيعُ أن يميِّزَ الخير من الشر إلا تابعٌ في ذلك الخير لنبيٍّ من الأنبياء سواء أحسَّ بذلك أم لا، فإذن هو مدينٌ بالشكر لرسل الله وأنبيائِه والربانيين التابعين لهم – على كلٍّ منهم السلامُ – .

أسئلة نموذجيَّة حول الدرس:

١- ما المراد بالميزان في الآية: ((وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ)) ؟

٢- ما هو هدف الأنبياء باختصار؟ .

٣- هل نال المخلدُ الخيرَ في الدنيا بسبب تعاليم الأنبياء؟.

الدرس العاشر

نظام التوجيه القرآني في الأخلاق

دعم القرآن دعماً علميَّاً وعمليَّاً في ترسيخ الأخلاقِ يمكن أنْ نحدِّد هذا الدعم فى جوانب فنبحث عن أبرزها:

الجانب الأول: ينظر القرآن إلى الأخلاق كواجبٍ للالتزام بها، إما بالأمر بها أو الدعوة إليها أو النهي عنها والذم لها، ويشمل هذا الجانب جميعَ طرُقِ العمل المعترف بها والمسلَّمة بالعقل والنقل وجميعَ طرقِ السيء المنبوذ.

مثلا يدعو إلى:

١- الاهتمام بأن يتعلَّمَ المرءُ واجباتِه، وتعليمَ الآخرين:((وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ)) التوبة: ١٢٢.

٢- الجهد الأخلاقي ومؤازرة الفقراء واليتامى في حال المجاعة:((فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ)) البلد:١١. ١٦.

٣- اتباعُ القدوة الحسنة ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)) الأحزاب:٢١.

٤- الاستقامة:((فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)) هود:١١٢.

٥- التنافس في فعل الخير، والأفضل:((فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)) المائدة: ٤٨.

٦- الأقوال الحسنى: ((وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)) الإسراء: ٥٣.

٧- الصدق:((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)) التوبة:١١٩.

٨- العفة والاحتشام:((قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)) النور:٣٠.

٩- استعمال الطيبات:((يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا)) البقرة:١٦٨.

١٠- الشجاعة والثبات:((وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ)) البقرة: ١٧٧.

١١- لين الجانب والتواضع:((وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)) الفرقان: ٦٣.

١٢- الإحسان العام:((إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)) النحل:٩٠.

١٣- الإحسان إلى الوالدين بخاصة ومع تشريفهما، وطاعتهما، والرقة لهما، وخفضِ الجناح:((وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)) الإسراء:٢٣.٢٤.

١٤- المعاملة الحسنة للزوجات:((فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)) البقرة: ٢٢٩. والتعامل الإنسانيُّ معهنَّ:((فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا)) البقرة: ٢٣٣. تعويض الزوجات في حالةِ الطلاق: ((وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)) البقرة: ٢٤١.

١٦- المساعدة في حاجةِ أُسَرِنا بقَدَرِ مواردِنا ((وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ)) البقرة: ٢٣٦.

١٧- المعونة الواجبة لذوي القربى، والجيران الأقربين، ولأبناء السبيل من الأشياء المفضَّلة لدينا ومن طيِّباتِ كسبِنا:((وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ))البقرة: ١٧٧ ((لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)) آل عمران:٩٢،((وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)) المعارج:٢٤.٢٥.

١٨- السخاء وردُّ السيء بالحسَن ((وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ)) الرعد:٢٢.

١٩- العدل في الحكم:((وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)) النساء:٥٨.

٢٠- أداء الأمانة:((فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ)) البقرة: ٢٨٣.

٢١- السماحة والكرم مع الجاهلين:((خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)) الأعراف:١٩٩.

٢٢- الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر:((يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)) آل عمران:١٠٤.

٢٣- تشجيع الإحسان والصلح:((لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)) النساء:١١٤.

٢٤- تعاونُ الجميع لِتَسودَ الفضيلة، ويعمَّ النظام:((وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)) المائدة:٢.

٢٥- الاعتصام بالوحدة المباركة:((وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا))

سبحان مَن علَّمنا كيف نضعُ المحورَ أوَّلاً، إذا أردنا أن نستجيبَ لأمرِهِ فلا نتفرَّق:" وَلاَ تَفَرَّقُواْ"، وسبحان مَن أنبأنا بأن المحورَ الجاذِبَ لن يكونَ جاذباً إلا إذا كان احتكاماً إلى الله وسلطانه:((وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ))،إذن ضعِ المحوَر أوَّلاً ثم أقِم عليه نظاماً محكماً بأيسر جهدٍ وأقرب سبيل. ولا بدَّ من توثيق روابطنا المقدَّسة:((وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)) الرعد:٢١. والانعطاف نحو الأخوة الروحية والدعوة لها:((يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا)) الحشر:١٠.

ما مضى صِيَغُ المدحِ الأخلاقي، هذه الطريقة في تعليم الفضيلة من خلال إعطاء القيمة للفضائل كمبدأ لا بشيءٍ آخر، وهي أداءٌ تربويٌّ ، وهذه ألقابُ الشرف إلى النفس الإنساني فيريد القرآنُ بواسطتها أن يحصلَ للإرادةِ طاقةً قويَّةً للالتزام والتخلق بها. وبهذه الامور تُرَى ثروةٌ من الألفاظ يُكرِم بها القرآنُ الفضيلةَ.

أسئلة نموذجيَّة حول الدرس:

١- ما هو منهج القرآن إلى الأخلاق كواجبٍ باعتبار نفسها ؟

٢- مثِّل لنموذجٍ أخلاقي حسَنٍ .

٣- ما هي رسالة القرآن إلى ألقاب الشرف للأخلاق؟.

الدرس الحادي عشر

واجباتٌ سلبيَّة ومنفيَّة

وبنفس الطريقة هناك واجبات سلْبيَّة، وهي التي تُحَرِّمُ الأفعالَ السيئة سوف نجد نقيضَ القيمة السابقة والتي تنطوي عليها الرذيلة، فينظر القرآنُ إلى الأخلاق السيئة كواجبِ الابتعاد عنها، إما بالنهي عنها أو الدعوة إلى الابتعاد عنها والذم لها، ويلقِّب القرآن ألقابَ السيء للرذائل توجيهاً للنفس الإنسانية فيريد بواسطتِها أن يحصلَ للإرادةِ طاقةً قويَّةً للابتعاد عنها.

فمِن الآثار المترتبة في أيِّ نقصٍ في الإيمان بالحقائق العليا الإيمانيَّة ما يأتي:

١- ضلالُ القلب:((أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى)) البقرة: ١٦. قساوة القلب:((ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)) البقرة:٧٤، إثم القلب:((وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)) البقرة:٢٨٣، دنَسُ القلب:((أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ))المائدة: ٤١، استكبارٌ لا مسوِّغ له:((إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ))غافر:٥٦. الشكُّ والريبة:((إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ)) التوبة:٤٥. وايَّةُ نتيجةٍ أخطر من موت الروح:((إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى)) وهذا الموت ليس موت البدن بل موت الروح عن سماع الحق بقرينة ((إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)) النمل:٨٠.

٢- الخبط في ظلمات التصرف ((وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ)) البقرة:١٧.

الميل والانحراف عن الصراط:((وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)) المؤمنون:٧٤.

اتباعُ المنفعة:((وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ)) النور:٤٨. خداع النفس: ((عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ))البقرة:١٨٧.

الانتهازيَّة:((وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا)) النساء:٧٢.٧٣. لَيُبَطِّئَنَّ: أي: ليتثاقلنَّ عن الجهاد.

انقلاب القِيَم:((يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ)) التوبة:٣٧. لِّيُوَاطِؤُواْ: أي: ليوافقوا.

٣- اتباعُ الهوى:((وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)) الأعراف:١٧٦. مماثلةُ ما هو دنيء:((فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)) الأعراف:١٧٦، وعبادة الهوى ((أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)) الفرقان:٤٣.

٤- اختيار صاحبٍ معلون:((وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا)) النساء:٣٨.

ومشي المرء خلف عدوِّه، وتحالفه معه:((إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)) الأعراف:٢٧. فعلُ الفحشاء والمنكر:((وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)) النور:٢١.

٥- المعرفة السطحية ((يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)) الروم:٧.

الدفاع عن قضيَّةٍ بلا يقين:((وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)) البقرة:٨٠.

والدفاع عن الكفر بلا برهان سوى اتباع الهوى، لذا كلُّ شيءٍ يهددُ ضميرَ الكافر نفسيَّاً:((سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا)) آل عمران:١٥١.

الدفاع عن قضيَّةٍ بلا تجربةٍ، يُخبِرون عن نشأة الكون ويتحدَّثون عن أصل الأنواع تخرُّصاً:((مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ)) الكهف:٥١. هذه كلُّها من آثار الكفر أعاذنا الله منها.

وبهذه الامور تُرَى في سردها ثروةٌ من الألفاظ يذُمُّ بها القرآنُ الرذيلةَ. وهذه الألقابُ الرذيلةُ متوجهةٌ إلى النفس الإنسانيه، فيريد القرآن بواسطتها أن يخلقَ للإرادةِ طاقةً قويَّةً للابتعاد عنها والاجتناب من التلبُّسِ بها.

أسئلة نموذجيَّة حول الدرس:

١- ما هو منهج القرآن إلى الأخلاق الرذيلة باعتبار نفسها ؟

٢- مثِّل لنموذجٍ أخلاقي سيِّء .

٣- ما هي رسالة القرآن إلى ألقاب الشرف للأخلاق؟.

الدرس الثاني عشر
الأخلاق باعتبار الظروف المحيطة بها

الجانب الثاني: ذكرنا في الجانب الأول الوصفي بلا عدَّ أمرٍ آخر، وهنا جانبٌ آخر هو الاخذ بالحسبان الظروف المحيطة وموقف الإنسان، فإنَّ القرآنَ يريد أن يضعنا أمام واقعٍ حيٍّ، حاضر في أنفسنا، في كلِّ مكانٍ وزمانٍ.

يريد أن يبعث فينا حضور الحقِّ الذي قال عن نفسِه((سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)) الرعد:١٠. سارب : اي: ذاهبٌ في سِرْبه وطريقِه ظاهراً.

ذلكم الذي خاطبنا بقولِه:((وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)) يونس:٦١.

ذلكم الذي:((مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا)) المجادلة:٧.

ذلكم الذي تحدَّث فقال:((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)) سورة ق:١٦.

فالله سبحانه يذكر ما يدلُّ على اطلاعه لما يفعله العبد كقوله:((يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)) النحل:٩١. الشورى:٢٥. و: ((يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ)) الأحزاب:٥١. و ((أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)) الطلاق:١٢. ((شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ)) يونس:٤٦. وهو الذي أكَّد: ((إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)) سورة طه:٤٦. فـ(يرى)(يسمع)(يعلم)أفعالٌ تدلُّ على الحضور والاطلاع.

سؤلان نموذجيَّان حول الدرس:

١- ما هو منهج القرآن إلى الأخلاق باخذ الغير فى الحسبان ؟

٢- كيف ينمى القرآن الحضور؟.

الدرس الثالث عشر

صور من أخلاق النبي–صلى الله عليه وسلم–وأصحابه

أولاً التوبة:

التوبة لفظ يشترك فيه العبد والرب سبحانه وتعالى، فإذا نسبت إلى العبد فالمعنى أنه رجع إلى ربه عن المعصية، وإذا وصف بها الرب تبارك وتعالى والمعنى أنه: ألطف على عبده برحمته وفضله.

تعريف التوبة:

التوبة لغة: قال ابن منظور : من تاب يتوب، و هي الرجوع من الذنب والتوبة مثله.

وقد وردت في القرآن الكريم بثلاثة معان:

الأول: بمعنى التجاوز والعفو وذلك إذا تعدى بـ(على) ، كقوله تعالى: ((فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)) (سورة البقرة: ٥٤)، وتاب الله عليه بالمغفرة.

الثاني: بمعنى الرجوع والإنابة، إذا تعدى بـ(إلى)، كقوله تعالى:((إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ)) (سورة الأحقاف: ١٥).

الثالث: بمعنى الندم على الزلة، كقوله تعالى: ((إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)) (سورة البقرة: ١٦٠).

وفي الاصطلاح هناك تعاريف كثيرة متقاربة المعنى، منها:

١–قال الإمام ابن جرير الطبري – رحمه الله –: (معنى التوبة من العبد إلى الله، إنابته إلى طاعته وأوبته إلى ما يرضيه ، بترك ما يسخطه من الأمور التي كان عليها مقيما مما يكرهه ربه).

٢–قال الإمام أبو القاسم الجنيد البغدادي– رحمه الله –: (التوبة: نسيان ذنبك وإخراج حلاوة ذلك الفعل من قلبك خروجاً لا يبقى له أثر في السلوك).

٣–قال أبو القاسم القشيري – رحمه الله –: (التوبة: الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه).

٤–يقول الإمام أبو حامد الغزالي– رحمه الله –: (اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم و من ثلاثة أمور مرتبة : علم، وحال، وفعل).

٥–عرفها الإمام القرطبي– رحمه الله – بقوله : (هي الندم بالقلب ، وترك المعصية في الحال والعزم على ألا يعود إلى مثلها ، وأن يكون ذلك حياءً من الله).

فالعلم هو الإيمان واليقين بأن الذنوب سموم مهلكة لا محالة تستوجب في الحال الندم ، وتقتضى فعلاً بالعدول عنها وتركها في الحال والمستقبل لهذا قال ﷺ من حديث عبدالله بن مسعود– (النَّدَمُ تَوْبَةٌ).

فالذنوب أسباب البعد عن لقاء الله تعالى، بل هي: إعراض عن الله، واتباع لهوى النفس و الشياطين، قال سبحانه وتعالى: ((وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) (النور ٣١).

مما سبق نستنتج أن التوبة هي معرفة العبد لقبح الذنوب وضررها عليه، فيقلع عنها مخلصا في إقلاعه عن الذنب لله تعالى، نادماً على ما بدر منه في الماضي من المعاصي قصداً، أو جهلاً ، عازماً عزماً أكيداً على عدم العودة إليها في المستقبل والقيام بفعل الطاعات والحسنات متحللاً من حقوق العباد بردها إليهم أو محصلاً البراءة منهم.

حكم التوبة:

اتفق العلماء على أن التوبة واجبة على الفور من جميع الذنوب والمعاصي، سواء أكانت كبائر، أم صغائر.

وقال الإمام أبو عبدالله القرطبي– رحمه الله – (ت: ٦٧١ هـ): (واتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين).

وقد دل على ذلك الكتاب والسنة: فمن القرآن الكريم:

١ – قوله تعالى: ((وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)) (سورة هود: ٩٠).

٢ – قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)) (سورة التحريم: ٨) .

٤– وقوله تعالى: ((وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) (سورة النور :٣١).

ومن السنة المطهرة: حديث أبي هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال:(والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرَّةً)

فهذه النصوص من الكتاب والسنة، تدل على وجوب التوبة على الفور، لأن الأمر المجرد يدل على الوجوب والفورية عند جمهور الأصوليين.

ومما تجدر الإشارة إليه أن التوبة هي أولى مقامات الصالحين، حيث إن السالك يبدأ في سلوكه وسيره إلى الله تعالى عبر برزخ الطريقة المنيفة بمقام التوبة وهي الدرجة الأولى، ومن ثمّ يقال إن فلاناً ألقن التوبة عند العالم الفلاني أو الشيخ الفلاني وذلك سنة ليلقّنه بآداب التوبة ويكون شاهداً عليه ويعلّمه عيوب نفسه ويرشده إلى ما بعد مقام التوبة من سائر المنازل والمقامات المدرجة في كتب التصوف، حيث إن مسيرة السالك يبدأ بالتوبة وينتهي بالعبودية التي هي آخر مقامات الصالحين.

ثانيا – فضائل التوبة وثمراتها:

كل عبادة أمر الله بها لا بد أن يكون لها فضائل وثمرات ولا شك أن للتوبة فضائل، منها:

١–محبة الله للعبد قال الله تعالى: ((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)) (البقرة: ٢٢٢).

٢-ومنها فرح الله -جل وعلا- بها قال النبي ﷺ: (لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاَةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِى ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِى وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ) وكل مسلم يتمنى أن يحبه الله ويفرح بتوبته.

٣- ومنها السعادة في الدارين قال الله تعالى: ((وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)) (هود: ٣) قال ابن كثير - رحمه الله - (يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً) أي: في الدنيا (إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) أي: في الدار الآخرة قاله قتادة كقوله تعالى ((مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)) (النحل: ٩٧).

٤- ومنها كثرة الخيرات والبركات ونزول الأمطار وزيادة القوة على الأعداء قال الله تعالى على لسان هود عليه السلام ((وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)) (هود: ٥٢).

٥- ومنها تبديل السيئات إلى حسنات قال تعالى ((إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)) (الفرقان: ٧٠).

أركان التوبة وشروطها:

هناك أركان وشروط للتوبة في الإسلام، وأجملها ما يأتي:

١-الندم على المعصية من حيث كونها معصية، ويعتد بهذا الندم إذا كان على ما فاته من رعاية حقوق الله تعالى، لا لحظ دنيوي أو غيره.

٢-العزم على أن لا يعود في المستقبل إلى ما جنى، أو إلى مثله.

٣-الاقلاع عن الذنب إن كان ملتبساً أو مصرّاً على المعاودة إليه، وهو منقول عن الإمام الشافعي--.

٤-الاستغفار لفظاً, لقوله تعالى: ((وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)) (سورة آل عمران: ١٣٥) .

٥-وقوع التوبة في وقتها وهو قبل غرغرة الروح عند النزع، فإنه يدل على قبول التوبة عندما تظهر علامات الموت.

٦-أن لا يكون عن اضطرار, كظهور الآيات، كقوله تعالى: ((هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)) (سورة الأنعام: ١٥٨).

٩-التدارك، كتسليم ما وجب في ترك الزكاة ومثله في ترك الصلاة والصيام، وكذا ردّ المغصوب.

ثانياً الصبر:

معنى الصبر لغةً: الحبس والكف، قال تعالى: ((وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)) (الكهف:٢٨) ، يعني احبس نفسك معهم.

معنى الصبر اصطلاحًا : حبس النفس عن فعل شيء أراده الله أو عن فعل شيء نهى الله عنه فهو صبر على شيء أمر به الله وصبر على شيء نهى الله عنه.

وحقيقة الصبر: هو خلق فاضل من أخلاق النفس، يمتنع به الإنسان عن فعل ما لا يحسن فعله، والوقوف مع البلاء بحسن الأدب، والثبات على أحكام الكتاب والسنة.

الصبر على ثلاثة أنواع:

١-صبر على طاعة الله.

٢-صبر على معصية الله.

٣- صبر على أقدار الله المؤلمة، والمصائب.

أهمية الصبر في الإسلام:

الصبر في الدعوة إلى الله تعالى من أهم المهمات، ومن أعظم الواجبات على الدعاة إلى الله - سبحانه وتعالى -، والصبر وإن كان واجباً بأنواعه على كل مسلم، فإنه على الدعاة إلى الله من باب أولى وأولى، ولهذا أمر الله به إمام الدعاة وقدوتهم رسول الله (عليه الصلاة والسلام) بهذه الصفة الحسنة.

أولاً (الصبر) في القرآن الكريم:

١-قال الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) (آل عمران:٢٠٠)، فعلّق سبحانه وتعالى الفلاح بمجموع هذه الأمور.

٢-قوله تعالى: ((فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ)) (الاحقاف:٣٥).

٣-قوله تعالى: ((إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)) (الزمر:١٠)، وإذا كانت الأعمال لها أجر معلوم محدود، فإن الصبر أجره لا حد له.

٤-قوله تعالى: ((سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)) وأخبر الله تعالى أن ملائكته تسلّم في الجنة على الصابرين لصبرهم على طاعة الله واجتناب ما نهى عنه.

ثانياَ(الصبر) في السنة الشريفة، وقد ورد الصبر في السنة أيضاً في مواضع متعددة، منها:

١-عن أنس ﷺ قَالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "إنَّ الله – عز وجل – قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عبدي بحَبيبتَيه فَصَبرَ عَوَّضتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ"، يريد عينيه، بشر النبي ﷺالذي يصبر على فقد عينيه بالجنة.

٢- بين الرسول ﷺأن الصبر ضياء، كما جاء في حديث: عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺكَانَ يَقُولُ: (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا).

٣-يقول ﷺ من رواية أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ :(إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ قَالَ اللَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا قَالَ؟ قَالُوا: اسْتَرْجَعَ وَحَمِدَكَ، قَالَ: أَبْنُوا لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْد)، فلا يقبض لمؤمن صفي من أهل الأرض فيصبر ويحتسب إلا وكان له ثواب إلا الجنة.

ثالثاً (الورع):

الورع لغة: من ورع يرع وهو مأخوذ من مادّة (ور ع) الّتي تدلّ على الكفّ والانقباض، قال ابن فارس: الورع: العفّة، وهي الكفّ عمّا لا ينبغي، وورّعته وأورعته: كففته.

الورع في اصطلاح العلماء: قال الجرجاني(رحمه الله) هو: (اجتناب الشّبهات خوفا من الوقوع في المحرّمات)، وهو: توق مستقصى على حذر, وتحرّجٌ على تعظيم، يعنى أن يتوقى الحرام والشبه وما يخاف أن يضره، وهو الكفّ عن المحرّمات القطعيّة.

وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشرّ الشّرّين، ويعلم أنّ الشّريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها وإلّا فمن لم يوازن ما في الفعل والتّرك من المصلحة الشّرعيّة، والمفسدة الشّرعيّة.

أنواع الورع ودرجاته:

قسّم الرّاغب الأصفهانيّ الورع إلى ثلاث مراتب:

١- واجب: وهو الإحجام عن المحارم، وذلك للنّاس كافّة.

٢- مندوب: وهو الوقوف عن الشّبهات، وذلك للأواسط.

٣- فضيلة: وهو الكفّ عن كثير من المباحات والاقتصار على أقلّ الضّرورات، وذلك للنّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين.

الورع في السنة الشريفة:

١- أَنَّ النَّوَّاسَ بْنَ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ - وَكَذَا قَالَ زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ الْأَنْصَارِيُّ - قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، فَقَالَ: (الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلَيْهِ).

٢- عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الْأَرْضَ وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ فَقَالَ الَّذِي شَرَى الْأَرْضَ إِنَّمَا بِعْتُكَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا قَالَ فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ فَقَالَ الَّذِي باعه للذى تَحَاكَمَا إِلَيْهِ أَلَكُمَا وَلَدٌ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِي غُلَامٌ وَقَالَ الْآخَرُ لِي جَارِيَةٌ قَالَ أَنْكِحُوا الْغُلَامَ الْجَارِيَةَ وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِكُمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا).

أقوال العلماء في الورع:

١-قال الحسن البصريّ- رحمه الله تعالى-:(أفضل العلم الورع والتوّكّل) وقال:- رحمه الله- تعالى: (الفقيه الورع الزّاهد المقيم على سنّة محمّد ﷺ الّذي لا يسخر بمن أسفل منه، ولا يهزأ بمن فوقه، ولا يأخذ على علم علّمه الله- عزّ وجلّ- حطاما).

٢- (قال سفيان الثّوريّ- رحمه الله تعالى-: (عليك بالورع يخفّف الله حسابك، ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك، وادفع الشّك باليقين يسلم لك دينك).

أسئلة حول الدرس السابق:

س١: التوبة لغة.....؟

س٢:من شروط التوبة: أ-..... ب-.....؟

س٣: عدد أنواع الصبر؟

س٤: لماذا اهتم الإسلام بالصبر؟

س٥: عرف الورع لغة وشرعاً؟

س٦: اذكر تقسيم الأصفهاني للورع؟

رابعاً (الاستقامة تعريفها وأقسامها ومراتبها):

الاستقامة التي تعني السداد والاعتدال لدى أهل التصوف هي تجنب: الإفراط والتفريط في جمع الامور في الاعتقاد في الاعمال في جميع المعاملات والاحوال والكلام حتى في الاكل والشرب، مراعياً السير في طريق الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

تعريف الاستقامة:

وهي في اللغة الاعتدال.

وفي الاصطلاح: فهي الوفاء بالعهود كلها و ملازمة الصراط المستقيم برعاية حد التوسط في كل الأمور من الطعام والشراب واللباس و في كل أمر ديني و دنيوي.

أو هي: حمل النفس على أخلاق القرآن والسنة.

ومعنى ذلك أن يستقيم العبد في حياته مع ربه ومع نفسه ومع الناس في قوله وعمله وحاله وفي كل ما يخطر وما يعنّ له من أفكار.

وكمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته لأجل العمل به، ورأس المعرفة اليقينية معرفة الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

((إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)) (سورة فصلت:٣٠)، ورأس الأعمال الصالحة أن يكون الإنسان مستقيماً في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط، فالخوف غمّ يلحق النفس لتوقع مكروه في المستقبل، والحزن غمّ يلحقها لفوات نفع في الماضي.

والاستقامة بالإضافة إلى ما تجعل لصاحبها من نعيم الآخرة الدائم، فإنها توسع عليه في الدنيا وتبسط له في الرزق، لقوله تعالى: ((وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا)) (سورة الجن:١٦)، والمراد بذلك سَعَة الرزق، كما قال الحافظ ابن كثير– رحمه الله – .

فالاستقامة على الطريقة تقتضي إكمالَ النعمةِ وإكثارَ الراحةِ، وبذلك ثبت ان مصطلح الطريقة مصطلح ظاهر قرآني والاستقامة عليها حثّ عليها القرآن الكريم.

أنواع الاستقامة:

قال شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري– رحمه الله –الاستقامة على خمسة أنواع:

١ –استقامة اللسان: وأعظم ما يُراعى استقامتُه بعدَ القلبِ مِنَ الجوارح اللسانُ، فإنَّه ترجمانُ القلب والمعبِّرُ عنه، ولهذا أمر النَّبيُّ ﷺالمسلم بالاستقامة ، و وصَّاه بعدَ ذلك بحفظ لسانه، وفي (مسند الإمام أحمد): عن النَّبيِّ ﷺعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ–: (قال: لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، ولَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُه حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ)

فإن اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير حجمه، عظيم طاعته وجرمه، إذاً لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان، ثم إنه ما من موجود، أو معدوم خالق، أو مخلوق، متخيل أو معلوم،

مظنون، أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات، أو نفي، فإن كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل ولا شيء إلا والعلم متناول له، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، ولأجل ذلك قال رسول الله ﷺ وعن مُعَاذٍ – – قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ؟ قَالَ:(لَقَدْ سَأَلتَ عَنْ عَظِيمٍ، وإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وتُؤتِي الزَّكَاةَ، وتَصُومُ رَمَضَانَ، وتَحُجُّ البَيْتَ) ثُمَّ قَالَ: (ألا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَما يُطْفِئُ الماءُ النَّارَ، وَصَلاَةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ) ثُمَّ تَلا: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضَاجِعِ حَتَّى بَلَغَ يَعْمَلُون ثُمَّ قَالَ:(ألا أُخْبِرُكَ بِرَأسِ الأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سِنَامِهِ) قُلْتُ: بَلَى يَا رسولَ اللهِ، قَالَ:(رَأسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذِرْوَةِ سِنَامِهِ الجِهادُ) ثُمَّ قَالَ:(ألا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ) قُلْتُ: بلَى يَا رَسولَ اللهِ، فَأخَذَ بِلِسانِهِ قال: (كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا) قُلْتُ: يَا رسولَ الله ﷺ وإِنَّا لَمُؤاخَذُونَ بما نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقالَ: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ).

٢– **استقامة القلب**: وأصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد، فمتى استقام القلب على معرفة الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، والتوكل عليه، والإعراض عما سواه استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت الجنود.

٣–**استقامة النفس**: وهي استقامة النفس البشرية على نهج الإيمان الواضح الصحيح الذي لا تشوبه شائبة، وذلك أمر لا يمكن تحقيقه إلا بممارسة شرائع الإسلام واتباع تعاليمه.

٤–**استقامة الروح**: واستقامة الروح على الصدق والصفاء

٥–**استقامة السر** : وهو على التعظيم والوفاء بالاشتغال بالمنعم دون النعمة.

مراتب الاستقامة:

الاستقامة في طريق القربة إلى الله تعالى ثلاث مراتب:

١– التقويم: يفوق المسلم في هذه المرتبة على تأديب نفسه بالالتزام بالإسلام من الناحية النظرية والعملية، حتى يجعلها جزءاً لا يتجزأ من طبيعته.

٢– الإقامة والسكون: وهو أن يبتعد المسلم عن المساوئ التي تختص عالم الامر كالرياء والسمعة والعجب التي لا تألف قطعاً مع العبودية فيهذب قلبه من الشرك وشوائبه.

٣– الاستقامة: وهي مقام انفراج أبواب السر لسالك سلك طريق الحق وهي نقطة قطب لنزول الواردات الإلهية باسم الكرامات والاكرامات, وإليه الاشارة بقوله تعالى: ((وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا)) (سورة الجن:١٦).

أسئلة حول مسألة الاستقامة:

س١:ما معنى الاستقامة لغة واصطلاحاً؟

س٢:اذكر أنواع الاستقامة؟

س٣: ما هي مراتب الاستقامة؟

الفصل الثاني

الدرس الرابع عشر

منهج تهذيب النفس

إن القرآن الكريم شامل لكل جوانب الحياة التشريعية والتربوية والتعليمية والتثقيفية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فأعطى في الحياة خطوطاً عريضة، ليتخذه الإنسان منهجاً سلوكياً يستنبط من الآيات القرآنية التي تعالج النفس وتزكيها، وتطهر القلب من الأدران، وهذا المنهج هو الذي اتخذه الرسولﷺ مبتدئاً بخلواته الإيمانية بغار حراء تعبداً وتنسكاً ليستعد لتلقي أوامر الشريعة ((إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا)) (سورة المزمل:٥)، ثم تابعه المجاهدون المؤمنون حتى زكت نفوسهم: ((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)):(سورة الشمس:٩)، ثم وجد التابعون حاجة الأمة إلى هذه المعرفة، فاستدركوا هذه المعاني وركزوا عليها وأفردوا لها دروساً، فسمي أصحابها الزهاد، وكان روائدهم الإمام (الحسن البصري) ﷺ فعندما كثرت الأمراض النفسية مثل: محبة الذات والكبر والحقد والرياء والنفاق والكذب والغيبة والحسد والاستغلال وغيرها، كل ذلك دعاهم إلى الخوض في التربية الروحية المستنبطة من القرآن الكريم والسنة الشريفة، فأتت هذه التربية الروحية ثمارها يانعة، خلقاً وصفاء، وطهراً وإنابة وخشوعاً وكان منهجها الأول: تزكية النفس ومخالفة الهوى ومجاهدة النفس وحضور القلب، فاستخدمت الوسائل المعنية بها، والتي نبينها في المباحث الآتية:

(الذكر فضله وأنواعه)

١-ذكر الله تعالى:

الذكر لغة: الصيتُ والثَناءُ هو التخطّر، والاستذكار.

وفي الاصطلاح: هو التخلص من الغفلة، ولذا قال تعالى: ((وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)) (سورة الأعراف: ٢٠٥).

ولدى أهل التصوف هو: تكرار اسم الجلالة (الله) سبحانه وصفاته واحدة بعد أخرى، أو بضع منها معاً، ويؤدى الذكر منفرداً أو جماعة بأي اسم كان.

فضل الذكر: قد تواردت الآيات والأحاديث وتواترت وتضافرت في بيانه:

أولاً في القرآن الكريم: ويتبين فضل الذكر في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعاً، منها:

١-الأمر به مطلقاً ومقيداً، أما مطلقاً فكقوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)) (سورة الأحزاب:٤١)، وأما مقيداً فكقوله تعالى: ((وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)) (سورة الأعراف: ٢٠٥).

٢-الإخبار بأن الذكر سبب لاطمئنان القلب, مثل قوله تعالى: ((الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)) (سورة الرعد: ٢٨).

٣-الأخبار بأن قلة الذكر من صفات المنافقين, كقوله تعالى: ((إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا)) (سورة النساء: ١٤٢).

ويؤدى الذكر باللسان وبالقلب وبالبدن:

الذكر باللسان هو: ذكر الله تعالى بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا، والثناء عليه والاشتغال بالتسبيح والتحميد، وكذلك قراءة القرآن الكريم وإعلان العجز والفقر بلسان الدعاء والمناجاة.

الذكر بالقلب، فقيل هو: ذكر الله تعالى بجميع أركان الوجدان وذكره قياماً وقعوداً بأخذ الدلائل على وجوده سبحانه والتفكر في أسمائه الحسنى وصفاته الجليلة التي تتجلى في كتاب الوجود والتي تهمس فينا كل آن همسات متنوعة، ومن ثم التفكر في أحكام ربوبيته التي تسع العالم أجمع.

وأما ذكر البدن فهو: تحويل الأوامر الإلهية ونواهيها إلى حياة تمارس وتعاش بحيث يستشعر الإنسان في وجدانه كل ما هو مكلف به فيأتمر بأوامره بشوق عظيم وينتهي بنواهيه مع الشعور العميق بالمسؤولية.

ان الذاكر والمستقيم والمداوم على الذكر بجميع أنواعه يكون إلى حفظ الله تعالى وحمياته ويؤوي في محاضن عنايته حتى أن الأمر إلهي (جلّ شأنه):((فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)) (سورة البقرة: ١٥٢)، يعبر عن كيفية ذات أسرار وهي تحّول العجز إلى القوة بعينها والفقر إلى الغنى.

ان الذكر قوت القلب والروح، ومن مزياه كذلك أنه يطرد الشيطان، ويقمعه، ويكسره، ويرضى الرحمن -عزّ وجلّ- ويزيل الهمّ والغمّ عن القلب، ويجلب له الفرح والسرور والبسط، وينور القلب والوجه، ويكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة، ويورثه محبة الله -عزّ وجل-.

ومن ذكره سبحانه وتعالى ذكرُ آلائه وإحسانه، وأفضل الذكر:

١- تلاوة القرآن، وذلك لتضمنه لأدوية القلب وعلاجه من جميع الأمراض، قال الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ)) (يونس من الآية : ٥٧) .

وقال الله تعالى : ((وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)) (الإسراء من الآية : ٨٢).

وأمراض القلب تجمعها أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء لكلا النوعين، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل فتزول أمراض الشبه وتفيد العلم، والتصور والادراك بحيث يرى الأشياء على حقيقتها.

قال الله تعالى: ((قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)) (سورة الحديد:١٦، ١٧).

أن بعضاً من أصحاب النبي ﷺ قد بدا منهم المزاح والضحك فأنزل الله تعالى: ((أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)).

٢-مراقبة الله تعالى في السر والعلانية لقوله تعالى: ((وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) (سورة الحديد: ٤).

٣-قيام الليل والتهجد والصوم والإقدام على جميع النوافل.

٤-التفكر بآلاء الله تعالى ومخلوقاته : ((الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)) (سورة آل عمران: ١٩١).

الذكر في السنة الشريفة:

١-عن أبي موسى الأشعري ﷺ : عن النبيّ ﷺ (مَثَلُ الَّذي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذي لا يَذْكُرُهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ).

٢-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُ تَعَالَى: ((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)).

قال ابن القيم- رحمه الله:

(ولا ريب ان القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فانه يجلوه حتى يدعه، كالمرآة البيضاء فاذا ترك صدئ، فاذا جلاه وصدأ القلب بأمرين بالغفلة والذنب وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر، فمن كانت الغفلة اغلب اوقاته كان الصدأ متراكباً على قلبه، وصداه بحسب غفلته، واذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه فيرى الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل).

الدرس الخامس عشر

الشكر تعريفه وأنواعه وحقيقته وفضله

فإن أصل الشكر هو: الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع والذل والمحبة.

الشكر لغة:

مصدر شكر يشكر، وهو عرفان الإحسان ونشره، والشكر من الله: المجازاة والثناء الجميل. والشكور:كثير الشكر، والجمع شُكُر، وفي التنزيل: " إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا "، وهو من أبنية المبالغة.

الشكر في اصطلاح العلماء:

قال ابن القيم – رحمه الله –: الشكر ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناءً واعترافا ً، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة.

وعرّفه الجرجاني–رحمه الله–بأن الشكر :عبارة عن معروف يقابل النعمة، سواء كان باللسان أو باليد أو بالقلب، وقيل :هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه، فالعبد يشكر الله، أي يثني عليه بذكر إحسانه الذي هو نعمة، والله يشكر العبد، أي يثني عليه بقبوله إحسانه الذي هو طاعته.

الشكر على ثلاثة أنواع:

١– الشكر بالقلب :وهو تصور النعمة.

٢– الشكر باللسان وهو الثناء على المنعم.

٣– الشكر بسائر الجوارح وهو مكافأته بقدر استحقاقه.

فضل الشكر:

لقد ذكر الله الشكر في أكثر من خمسين موضعًا من كتابه الكريم، فمرة قرنه سبحانه بالإيمان به وأخبر أنه لا غرض ولا حاجة له في عذاب خلقه إن شكروا و آمنوا به، فقال تعالى :((مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)) وتارة أخرى يخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال تعالى :((وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ)) بل إن الله وصف عباده الشاكرين بأنهم قلة من عباده فقال تعالى :((وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ))، ومما يدل على فضل الشكر وعلو منزلته أن رضا الله معلق بالشكر.

يقول ابن القيم – رحمه الله" :– ومن منازل ((**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**)) منزلة الشكر، وهي من أعلى المنازل، وهي فوق منزلة الرضا وزيادة، فالرضا مندرج في الشكر إذ يستحيل وجود الشكر بدونه .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺإِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأُكْلَةَ، فَيَحْمَدَ اللَّهَ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ. وعلق سبحانه زيادة النعم بشكره عليها ومن جحدها كان له العذاب الشديد من الله، فقال تعالى :((وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ))، فبين سبحانه أنه متى ما شكرت نعمه يزيدك بغير حساب، وزيادته لا حد لها، كما أنه لا نهاية لشكره.

قال علي بن أبي طالبﷺ لرجل من همذان(: إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد.)

وقال الحسن البصري – رحمه الله –(إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابًا"
وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍﷺ قَالَ :أَخَذَ رَسُولُ ﷺبِيَدِي فَقَالَ :يَا مُعَاذُ ,وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَقُلْتُ :بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ , وَأَنَا أُحِبُّكَ , فَقَالَ رَسُولُ اللهِﷺ أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ(, لَا تَدَعَنَّ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ :اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ , وَشُكْرِكَ ,وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ .)

فهذا الحديث يدل على عظم منزلة الشكر وفضله، إذ جعل الشكر مدار الخير وعنوانه، ولهذا أوصى معاذًا بطلب العون من الله على هذه العبادة، وجعل موضع الطلب في دبر كل صلاة تشريفًا، وتكرار الطلب في اليوم خمس مرات دلالة على أهميته وفضله .

أمور معينة على الشكر:

الأمور المعينة على الشكر كثيرة، ولكن نجملها في هذه الأسباب على سبيل المثال لا الحصر لها:

١– إمعان النظر في كثرة النعم التي نرفل فيها ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا، وأننا مطالبون بشكر الله عليها سواءً كانت حسية أو معنوية.

٢– النظر في أمور الدنيا إلى من هو دونك، وإلى أمور الآخرة في من فوقك، كما أرشدنا إلى ذلك النبيﷺ في قوله :من رواية أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ (:انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)

٣– مقارنة ما نحن اليوم فيه من النعم وبين ما كان عليه سلفنا وأجدادنا في الماضي.

٤- التحدث بالنعم، قال تعالى :((وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ))، قال الحسن البصري : (أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر).

٥- النظر في سير الصالحين، وكيف كانوا يشكرون الله على نعمه.

ثمرات الشكر :والشكر له منزلة عظيمة في الإسلام وفضله واضح في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكذلك له ثمرات كثيرة بالنسبة للشاكرين في الدارين، منها:

١-من صفات المؤمنين :عَنْ صُهَيْبٍ ﷺ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ).

٢-سبب لرضى الله تعالى لعباده :قال تعالى: ((وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)) (الزمر٧)

أمان من العذاب :قال تعالى: ((مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)) (النساء١٤٧)

قال قتادة رحمه الله : (إن الله جل ثناؤه لا يعذِّب شاكرًا ولا مؤمنًا).

٣-سبب للزيادة :قال تعالى:((وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)) (إبراهيم ٧.)

قال بعض السلف رحمهم الله تعالى:(النعم وحشية فقيدوها بالشكر.)

وقال الحسن البصري : (إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابا، ولهذا كانوا يسمون الشكر :الحافظ، لأنه يحفظ النعم الموجودة، والجالب، لأنه يجلب النعم المفقودة)

٤-الأجر الجزيل في الآخرة :قال تعالى : ((وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)) (آل عمران ١٤٥.)

وقال سبحانه : ((وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)) (آل عمران ١٤٤)

الدرس السادس عشر
الحياء فضله وأدلته

تعريف الحياء:

لغة :هو انقباض وانزواء وانكسار يعتري المرء خوف ما يعاب به .وهو مشتق من الحياة، فمن لا حياء له فهو ميت في الدنيا وشقي في الآخرة.

وشرعاً هو :انقباض النفس من شيء وتركه حذرًا عن اللوم فيه، وهو نوعان :نفساني، وهو الذي خلقه الله تعالى في النفوس، كلها كالحياء من كشف العورة، والجماع بين الناس، وإيماني؛ وهو أن يمنع المؤمن من فعل المعاصي خوفًا من الله تعالى .

أنواع الحياء :

أولاً :الحياء من الله :حين يستقر في نفس العبد أن الله يراه، وأنه سبحانه معه في كل حين، فإنه يستحي من الله أن يراه مقصراً في فريضة، أو مرتكباً لمعصية، قال الله عز وجل : ((أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى))العلق١٤) وقال :((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)) (ق: ١٦ .)

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اطلاعه على أحوال عباده، وأنه رقيب عليهم، وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ قُلْتُ : (إِنَّا لَنَسْتَحِي يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَالَ) لَيْسَ ذَلِكَ، (وَلَكِنْ مَنِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْيَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ).

ثانيًا :الحياء من الملائكة :قال بعض الصحابة :إن معكم مَن لا يفارقكم، فاستحيوا منهم، وأكرموهم، وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله : ((وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ)) الانفطار١٠-١٢ قال ابن القيم رحمه الله : (أي استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام، وأكرموهم، وأجلُّوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه مَنْ هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بإيذاء الملائكة الكرام الكاتبين)

ثالثًا :الحياء من الناس :عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال : (لا خير فيمن لا يستحي من الناس، وقال مجاهد)رحمه الله : (لو أن المسلم لم يصب من أخيه إلا أن حياءه منه يمنعه من المعاصي لكفاه.)

رابعًا :الاستحياء من النفس :من استحيا من الناس ولم يستحِ من نفسه، فنفسه أخس عنده من غيره، فحق الإنسان إذا هم بقبيح أن يتصور أحدًا من نفسه كأنه يراه، ويكون هذا الحياء بالعفة وصيانة الخلوات وحُسن السريرة.

فإذا كبرت عند العبد نفسه فسيكون استحياؤه منها أعظم من استحيائه من غيره، قال بعض السلف :من عمل في السر عملاً يستحيي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر.

منزلة الحياء:

قال تعالى:((أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى)) العلق :١٤، إذا فعل أحدنا فعلاً شنيعاً وكشف أمام الناس، فتذوب كما يذوب الشمعة، فما بالك برب السموات والأرض الذي لا يعزب عنه مثقال حبة لا في الأرض ولا في السماء؟

قالِ سالم ابنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ"ﷺ (مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الحَيَاءِ)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ (دَعْهُ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ).

أقوال العارفين في فضل الحياء :

قال الفُضيل بنُ عياض–رحمه الله :(خمسٌ من علامات الشقاء : القسوة في القلب ، وجمود العين , وقِلة الحياء ، والرغبةُ في الدنيا ، وطولُ الأمل، هذه خمسُ علاماتٍ من علاماتِ شقاء الإنسان :قِلةُ حيائه , وقسوة قلبه , وجمودُ عينه , ورغبته الجامحة في الدنيا , وطولُ أمَلِهِ فيها)

وقال السرّيُّ الثقفي (رحمه الله): (إنَّ الحياءَ والأُنسَ يطرقان القلب , فإن وجدا فيه الزُهدَ والورع أقاما , وإلا ارتحلا) وقالَ يحيى بنُ مُعاذ (رحمه الله): (من استحيا من اللهِ مُطيعاً , استحيا الله منهُ وهوَ مذنبٌ).

الدرس السابع عشر

(التواضع) تعريفه وفضله ومنزلته في الإسلام

تعريف التواضع:

التواضع لغةً: مصدر تواضع أي أظهر الضَّعةَ، وهو مأخوذ من مادة (وض ع) التي تدل على الخفض، والتوَاضُعُ: التذَلُّلُ.

أما في الاصطلاح: إظهارُ التنَزُّلِ عن المرتبة لمن يُرادُ تعظيمُة، وقيل: هو تعظيمُ مَن فوقَهُ لفضله.

فضل التواضع:

قال تعالى: ((وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)) (الشعراء: ٢١٥)، وقال تعالى: ((وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا)) (الإسراء: ٣٧).

ورد في السنة المطهرة فضل التواضع منها: ما رواه أبو هريرة ﷺعن رَسُولِ اللهِ ﷺقال: (مَا نَقَصَت صَدَقَة من مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبداً بِعَفوٍ إلا عِزاً، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَد لِلهِ إلا رَفَعَهُ الله).

وروى عِيَاضِ ﷺقال: قال رسول الله "ﷺ (إن اللهَ أَوحَى إِلَيَّ أَن تَوَاضَعُوا حَتى لا يَفخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلا يَبغ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ).

والتواضع على ثلاث درجات:

الأولى: التواضع للدين، وهو الانقياد والتسليم والإذعان لكل ما جاء به الرسولﷺ فلا يعارض شيئاً مما جاء به، ولا يتهم دليلاً من أدلة الدين.

الثانية: أن ترضى بما قدر الله له.

الثالثة: أن تتواضع للحق سبحانه، وتعبده بما أمرك به على مقتضى أمره، لا على ما تراه من رأيك.

أسئلة حول الفصل الثاني:

س١: ماهي فوائد الذكر؟

س٢: من انواع الذكر: أ-..... ب-.....

س٣: الشكر لغة..... .

س٤:ماهي الأمور المعنية بالشكر؟

س٥: ما المقصود بالحياء؟

س٦:اذكر أنواع الحياء؟

س٧: عرف التواضع؟

س٨: بين فضل التواضع في القرآن الكريم؟

س٩: اذكر درجات التواضع؟

الدرس الثامن عشر

البذل والإيثار والتّضحية

لايمكن مقارنة طلب العلم بأيّ عملٍ آخر في الفضل والثّواب؛ إذ يخطو الطالب خطواته نحو تحصيل العلم، والعلم أصل كلّ شيءٍ، يحرِّر العقول من القيود والأوهام، ويُدِير حركة الإنتاج والنّهضة، ويَقضِي على الكساد والفساد وأمنيات الشّيطان، فهو أساس كلّ عبادةٍ؛ فلا يمكننا القيام بالصّلاة والصّيام والزّكاة والحجّ دون علمٍ؛ فالعلم هو الأساس؛ وقد رفع الله درجات أهل ويقول تعالى: ﴿﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾﴾ سورة المجادلة/١١، وتضع لهم الملائكة أجنحتها، ويدعو لهم المخلوقات بالمغفرة، وهذا ما أخبرنا الرّسول الأكرم ﷺبقوله: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ، كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ) رواه التّرمذي.

ولا يقتصر هذا الفضل على علمٍ دون آخر، بل يشمل شتّى العلوم من التّفسير والحديث والفقه واللّغة والكيمياء والفيزياء والطّب والهندسة وغيرها إذا قصد بها رِضَى الله سبحانه ثمّ خدمةَ المسلمين والإنسانيّة.

ولاشكّ أنّ من يريد الوصول إلى قمّة هذا المجد، عليه أن يبذل وسعه، وأن يضحّي بجميع ما من شأنه أن يكون عائقاً على طريق تعلّمه، فالبذل والتّضحِيَة من متطلّبات طلب العلم، وعلى الأخصّ طالب المدارس الإسلاميّة، ولاسيّما في هذا العصر الّذي نرى فيه المصائب تتوالى على المسلمين، وذلك لمساهته في إنقاذ الأمّة، فالطّالب في المدارس الدّينيّة يحتسب الوَقْتَ، ويحتسب قليلَ الكسْب الّذي يُعين على قيام الحياة؛ ليفرّغ وقته وجهده وذهنه لطلب العلم، والإحاطة بالمسائل الشّرعية، بخلاف غيره، فلا يلزمه ذلك؛ وهذا من أفضل العبادات، لذا إنَّ جُهده ووقته إمَّا مقطوعٌ في عبادة، وإمَّا مستثمر في عمل وكسْب حلال.

وعلى طالب العلم أن يكون صادقًا مع نفسه، ولا يقْحِم نفسَه في أمرٍ قد لا يستطيعه، ويترتَّب على العجز عنه آثار سلبيَّة تؤثّر على الطّلب، أو نفسيَّة الطّالب، أو مَن زجَّ بنفسه في هذا المضمار، فطالب العلم لا يُشْغِل فكره ووقته بالعمل السّياسي والتّجاري والمجادلات الّتي لا تأتي بشيءٍ في مسيرته العلميّة، بل ينبغي أن يتجرّد لتحصيل العلوم وتطوير ذاته واستثمار ذلك في المستقبل كي يساهم في إصلاح المجتمع وتطويره.

وبناء على ذلك يجب أن يتّصف الطّالب بالإيثار، بأن يقدّم حاجة غيره من النّاس على حاجته ولاسيّما رفاقه الطّلبه، برغم احتياجه لما يبذله، فقد يجوع ليشبع غيره، ويعطش ليروي سواه.

فالإيثار من صفات الأنبياء والأولياء، كما تقول أمّ المؤمنين عائشة ﵂: (ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيّام متوالية حتّى فارق الدّنيا، ولو شئنا لشبعنا، ولكنّنا كنّا نُؤْثِر على أنفسنا).

وقد أثنى الله على أهل الإيثار، وجعلهم من المفْلِحين، فقال تعالى: ((وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)) سورة الحشر/٩.

والإيثار دليلُ كمالِ الإيمان وحسنِ الإسلام ورفعةِ الأخلاق، وهو طريقٌ إلى محبّة الرّبّ سبحانه، وجلب البركة والوقاية من الشُّحِّ.

وإذا انتشرت هذه الصّفات بين الطّلبة وهم قادة المستقبل ونشروا أيضاً بين المسلمين فينتشر التّعاون والتّعاضد بينهم، وتتحقّق الكفاية المادّية في المجتمع. ويكون تطبيقًا عمليّاً لتحقّق الكمال الإيماني في النّفس، الّذي يقول عنه المصطفى ﷺ: (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) رواه البخاري.

وكذلك يبتعدون عن الحَسَدِ والحِقْدِ، والبُغْضِ للآخرين، والأَنَانِيّة والجشع، وغيرها من الصّفات الذّميمة.

ولكي يتّصف بهذه الصّفات المستحبّة، على طالب العلم أن يصعد سلّم الأخلاق الحميدة من ذلك: (*الرّغبة في مكارم الأخلاق، والتّنزّه عن سيئها. *وبُغض الشُّحِّ. *وتوطين النّفس على تحمّل الشّدائد والصّعاب. *وتعظيم الحقوق جميعها).

وتتقوّى هذه الصّفات وتتأكّد حينما تكون العلاقة أقرب وأقوى بين النّاس، مثلاً على المسلمين أن يكونوا مصدر خيرٍ للإنسانيّة، ثمّ يكونون أكثر من ذلك بين المسلمين أنفسهم، وهكذا بين أهل البلد الواحد، وعائلة واحدةٍ، وينبغي أن تكون أقوى بين الطّلبة لأنّهم في الوقت نفسه شركاء في الإنسانيّة والإيمان والبلد ومسيرتهم العلميّة.

وهذا تلبية لأمر الله تعالى: ((وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)) سورة الشّعراء/٢١٥. واتّصاف بما وصف الله تعالى به نبيّه صلّى الله عليه وسلّم: ((فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)) سورة آل عمران/١٥٩.

الدرس التاسع عشر

قوّة الإرادة وضبط النّفس

يواجه طالبُ العلم كثيرًا من العوائق الّتي تعرقل سيره في طريق تحصيل العلمكالفقر وما يحتاج إليهفي تأمين حياته من الطّعام واللّباسوشراء الكتُب والمراجع اللاّزمة لعمليَّة الطَّلب، وكذلك عوائق الطّريق وفقدان الأمن ووجود قطّاع الطّرق.

وقد تأتي العقبات من أناس يشجّعونه على ترك الدّراسة، ويبخسونها، أو ربّما يمنعه الأقرباء من مواصلة سيره. وكذلك نجد الحياة مليئةً بالمغريات والمثبِّطات، مليئة بالشّهوات والمخاوف، المخاوف تُقعد الطّالب عن طلب الحقّ، وعن طلب العلم، وعن حضور مجالس العلم، وعن الالتزام بالإسلام. والمغريات تدعوه إلى المعاصي والآثام.

فإذًا يحتاج الطّالب إلى تخطّي هذه العقبات للوصول إلى فضيلة العلم وقِمَمِ قيادة التّخلّق وريادة الإنسانيّة.

ولا يمكن مواجهة هذه العقبات إلاّ بقوّة الإرادة وضبط النّفس، فبقوّة الإرادة يُصْبِح الإنسان شجاعاً في المواجهة، وهناك مخاوف حاضرة بضعف الإرادة يصبح الإنسان جباناً في مواجهتها، وهناك مخاوف متوقَّعة يصبح متفائلاً بقوة الإرادة، وهناك مخاوف متوقَّعة يصبح متشائماً بضعف الإرادة. فالإنسان بين الشّجاعة والتّفاؤل، وبين الجبن والتّشاؤم، والعامل الذي يؤثِّر في هذه الصّفات الأربع هي قوّة الإرادة، إمّا أن يكون المرء شجاعاً متفائلاً، أو جباناً متشائماً، فبقوة إرادته واتّكاله على الله عزَّ وجلّ يصبح شجاعاً متفائلاً، وبضعف إيمانه وضعف إرادته يصبح جباناً متشائماً.

والصّبر هو مفتاح الفوز والمقاومة وقطع الطّرق الوعرة، وليس الصّبر إلاّ ثمرة قوّة الإرادة لصعود الصّعاب وضبط النّفس للابتعاد عن المغريات.

وبالإيمان يعلم الإنسان أنّ هذه العقبات ليست إلاّ مكائد وضعها الشّيطان وأتباعه لاصطياد الإنسان، وبإيمانه باللّه تعالى تتقوّى عزيمته في المواجهة وعدم السّقوط في هاوية الشّهوات والغرور والعجب والتّكبّر والضّعف وفقدان الثّقة، قال تعالى: ((وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)) سورة النّساء/ ٢٧ – ٢٨). فبالإيمان يميّز الإنسان بين ما يريده الله وما يريده الشّيطان، وحينما يعلم ذلك تتضائل لديه عقبات الخراب والضّعف، وتتضاعف ثقته بالله للنّظر نحو أفق النّجاح والنّصر، فلا تؤثّر فيه عوامل التثبيط والانحراف في داخله وفي خارجه. ولا يجد الشّيطان فرجة ليوقعهفي معاصي (الشّهوات، وكسب الحرام، والكسل...)،ولو وقع فيها فيرجع بفائق السّرعة.

ولقوّة الإرادة وضبط النّفس حيّزٌ من الإيمان كما قال النّبيّ ﷺ: (لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ) رواه البخاري. هنا يصف الرّسول ﷺالإنسان القوي الحقيقي، ويبيّن أنّه ليس مَنْ يغلب الرّجال ويصرعهم، بلمَنْ يكظم غيظه ويتحلم ولا يعمل بمقتضى غضبه. ولا يستطيع أحدٌ أن يتحلّى بذلك إلاّ مَنِ اتّصف بقوّة الإرادة وضبط النّفس.

إنّ قوّة الإرادة وضبط النّفس شيئان متماثلان،لابدّ من وجودهما عند كلّ مسلمٍ ولاسيّما طالب العلم؛لكي يستطيع التّغلّب على نفسه وشيطانه الّذي يثبطه عن العمل ويجعله يعتاد على النّوم والكسل والخمول والميل إلى الدّنيا.

ولابن الجوزي كلامٌ نفيسٌ عن ذلك ويقول: (تأمّلتُ عجبًا، وهو أنّ كلّ شيءٍ نفيس خطير، يطول طريقه ويكثر التّعب في تحصيله، فإنّ العلم لما كان أشرفَ الأشياء لم يحصل إلاّ بالتّعب والسّهر، والتّكرار وهجر اللّذات والرّاحة). لذا يمكن الجزم بأنّ قوّة الإرادة تحقّق التّقدّم العلمي في أوقاتٍ قصيرةٍ، وتساعد على الاستمرار في طلب العلم وعدم الانقطاع أو الملل، وتجعل طالب العلم يختلق فُرَصَ التّعلّم ويستثمرها، ويزيد تركيزه ويتغلّب على المعوقات.

ومن أبرز وسائل قوّة الإرادة بعد الإيمان باللّه والتّوكّل عليه: (ثقة الإنسان بنفسه وشعوره بقدرته على التّعلّم، وكذلك الاطّلاع والتّوسّع والاستمرار في القراءة، وتتبّع سِيَرَ العلماء، والممارسة المستمرّة لكلّ عملٍ يساعد على طلب العلم، والاجتناب عن كلّ عملٍ يضعف عزيمته عن طلب العلم، وتنمية العلاقة الحميمة مع الأساتذة والزملاء).

أسئلة نموذجية:

س/ اذكر حديثًا نبويًّا على فضل الإيثار والتّضحية.

الدرس العشرون

أمراض القلب وعلاجه

ان أمراض القلب الباطنة أشد ضرراً من أمراض البدن والقلب الظاهرة لأنها تفوت عليه سعادة الأبد، ومرض القلب خفي وعلاجه عسير على من لم يصبر على مرارة دوائه، لأن دواءه مخالفة الهوى.

وتطهير باطن الإنسان الذي ينتج عنه عمل الظاهر أولى، فإذا تم له ذلك التطهير صار جديراً بأن يقف بين يدي الله –عز وجل– تالياً لكتابه بخشوع وتضرّع وتدبّر.

أولاً الكبر: تعريفه، دليله، وأقسامه، ومعالجته

الكبر لغة بالكسر :العظمة.

واصطلاحاً: هو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق الاخرين.

والكبر في الإنسان ظاهر وباطن، فالباطن خُلق في النفس، والظاهر: أعمال تصدر عن الجوارح.

أدلته كثيرة من القرآن الكريم والسنة الشريفة:

إن الشريعة الإسلامية المباركة تحذر المسلم من هذه الصفة المهلكة للنفس وتدعو إلى قلعها من القلب بدواء من القرآن الكريم والسنة المطهرة:

١–قوله تعالى: ((وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا)) (سورة الإسراء:٣٧).

وأصل المرح في اللغة: شدة الفرح والنشاط, وإطلاقه على مشي الإنسان متبختراً مشي المتكبرين، لأن ذلك من لوازم شدة الفرح والنشاط عادة، (وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً) أي: انت إيها المتكبر المختال: ضعيف حقير عاجز محصور بين جمادين، أنت عاجز عن التأثير فيهما، فالأرض التي تحتك لا تقدر أن تؤثر فيها فتخرقها بشدة وطئك عليها، والجبال الشامخة فوقك لا يبلغ طولك طولها، فاعرف قدرك، ولا تتكبر، ولا تمش في الأرض مرحاً.

٢– عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ–– قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ : (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ) فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنًا، قَالَ:(إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ)

أقسام الكبر:

تتهاوى ظلمات الكبر بتفاوت المعرفة وتعزز النفس :

١– التكبر على الله تعالى: (وهي العظمة التي تصل بصاحبها إلى الكفر، وهو أفحش أنواع الكبر) ومثاره: الجهل المحض والطغيان، مثل:

أ– تكبر إبليس على الله تعالى: ((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)) (سورة البقرة:٣٤).

ب- تكبر فرعون: ((وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا)) (سورة غافر:٣٦، ٣٧).

٢-التكبر على الرسلﷺ من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر قبل سائر الناس، بأن يصرف نفسه عن الفكر والاستبصار ليبقى في ظلمة الجهل وفي ظنه أنه محق مع معرفته بأنه الحق :((وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)) (سورة النمل:١٤).

وقوله تعالى: ((وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)) (سورة الزخرف:٣١).

قال أبو جعفر بن محمد جرير الطبري(ت:٣١٠هـ)- رحمه الله -: القائل هو: الوليد بن المغيرة، قال: (لو كان ما يقول محمد حقاً أنزل عليّ هذا، أو على ابن مسعود الثقفي) .

٣- التكبر على العباد: بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، وهو على أربعة مراتب:

أولاً: وهو أن يكون التكبر مستقراً في قلب الإنسان، فهو يرى نفسه خيراً من غيره.

ثانياً: أن يظهر التكبر بأفعاله، مثل الترفع بالمجالس والتقدم على الأقران والإنكار على من يقصر في حقه.

ثالثاً: أن يظهر التكبر على اللسان، كالدعاوي والمفاخرة وتزكية النفس في معرض المفاخرة لغيره، كالتكبر بالنسب.

رابعاً: التكبر بالمال بين الاغنياء، والجمال بين النساء .

حكمه ومعالجته:

فإزالة هذا الوصف- أعني الكبر -فرض عين، وهي لا تكون بمجرد التمني، بل بالمعالجة باستعمال الأدوية النافعة في إزالته، بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس، ويكون علاجه على النحو الآتي:

١- أن يجيب دعوة الفقير، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل ذلك عليه، فهو كبر، فليشتغل بإزالته.

٢- أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر.

أسئلة نموذجية:

١- عرّف الكبر وبيّن أقسامه.

٢-كيف تعالج مرض الكبر؟

الدرس الحادي و العشرون

العجب تعريفه ودليله وعلاجه

العجب: لغة الزَّهْوُ وهو: الفَخْرُ .

وفي الاصطلاح: عبارة عن تصور استحقاق الشخص رتبة لا يكون مستحقاً، وتغير النفس بما خفي سببه وخرج عن العادة مثله .

ولا شكّ فهو مذموم في القرآن الكريم وسنة رسوله ﷺ

فمن القرآن الكريم:

قوله تعالى: ((لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)) (سورة التوبة:٢٥).

من السنة المطهرة: قوله ﷺ :من رواية أبي هرَيْرَةَ رضي الله عنه: (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ الأرض، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ(), إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

أقسام العجب:

اقسام العجب على ثلاث ركائز:

أولاً: العجب بالبدن والهيئة والجسم والصحة والقوة والبطش، وهي حقيقة أسبغها الله تعالى عليه مع العيوب التي فيه، ومتى شاء الله تعالى سلبها منه بأدنى آفة يسلطها عليه.

ثانياً: الدين وهي حمد النفس على ما علمت أو علمتَ، وهو على ثلاثة أوجه:

١- العلم: ما حفظ وفهم من الكتاب والسنة وأقوال علماء الأمة، وقد يتعدى هذا المفهوم ليشمل كل العلوم الأخرى من الطب والهندسة والكمياء والفزياء.

٢- العمل: بأن يكون يستكثره ويستعظمه في عينه، ويرى في نفسه أنه استحق الثواب الأعظم عمله.

٣-الرأي الصواب: فيما استنبط قياساً على الكتاب والسنة والإجماع في تأصيل مسائل الفروع الفقهية وغيرها من العلوم، وقد يتعدى ذلك ليشمل ما في العلوم الأخرى.

ثالثاً: العجب بالمال وكثرة الأولاد والعدد والعشيرة والأقارب والنسب والأتباع .

علاج العجب:

ان علاج هذا المرض في الغالب يستلزم شهود المنة من الله تعالى، فإنها توجب الشكر، والتقصير في شكر النعمة، وعلاج كل علة بمقابلة سببها الباعث عليها بضده وعلة العجب الجهل المحض، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل ، وقال تعالى: ((وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)) (سورة النساء:١١٣).

أسئلة نموذجية:

١-ماهي أقسام العجب؟

٢-كيف تعالج العجب؟

الدرس الثاني و العشرون

الرياء تعريفه ومظاهره وعلاجه

الرياء لغة: أريته خلاف ما أنا عليه.

وفي الاصطلاح: ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله تعالى فيه.

ذمه في القرآن الكريم والسنة المطهرة:

أولاً من القرآن الحكيم:

١- قوله تعالى: ((أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)).

السَّاهي عن الصلاة الذي لا يُصَلِّي، ولم يقل: الذين هم في صلاتهم ساهون، ولو قال ذلك لكان الأمرُ عظيماً.

((الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ)): أي يصلون ويفعلون ذلك على رؤية الناس، لا إخلاصَ لهم.

٢- قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ)) (االبقرة/٢٦٤).

فأظهر لهم أنه يريد وجه الله تعالى، وإنما قصده مدح الناس له، أو شهرته بالصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية.

ومن السنة الشريفة: عن أَبي هريرة ﷺقَالَ : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ : قَالَ الله تَعَالَى :(أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) . رواه مسلم .

مظاهر الرياء:

حقيقة الرياء ودوافعه قلبية، ولكنها قد تظهر بادية للعين في صور شتى، منها:

١- في البدن: فمن الناس من يظهر ظاهره ليدل على صيامه وقيامه واجتهاده في العبادة، ليدل على التزامه بالشرع.

٢- الزي: كتشمير الثياب ولبس الخشن وزي العلماء، للدلالة أنه متبع السنة إظهاراً للزهد ولتنصرف الأعين إليه.

٣-العمل: كتطويل صلاته بالقيام والركوع والسجود وتعديل الأركان وإطراق الرأس وترك الإلتفات وإظهار الهدوء والسكون في محضر الناس دون الخلوة.

أسئلة نموذجية:

١-بيّن معنى الرياء.

٢-ماهي حقيقة الرياء؟

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، بعد جولة من البحث حول هذا العلم الشريف وصل البحث إلى عدة نتائج أهمها ما يأتي:

١-إن علم التصوف والسلوك وتزكية النفس ليس شيئاً عارضاً في الإسلام بل هو جوهره ولبّه وهو شعبة عظيمة من شعبه، ويكفي أن الله سبحانه جعله من المهام التي أرسل به سيدنا محمداً-- بقوله: ((هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ)) (سورة الجمعة٢)، أي يحملهم على ما يصيرون به أزكياء طاهرين من خبائث العقائد والأعمال.

٢-إن علم التصوف هو: الاعتصام بأسس الدين بقوة، ومراعاة أوامر ونوهيه بدقة مجانبة حظوظ النفس قدر المستطاع، بملازمة الجوع واليقظة.

٣-ان للنفس صفات دنيئة وأخلاقاً مذمومة وان إزالتها فرض عين وهذا مما اعتنى به علم التصوف على كل مسلم ومسلمة ولابدّ من تزكيتها بمنهج قويم من القرآن الكريم والسنة المطهرة ومنهج سلف الصالح

٤- الاهتمام بالنفس وتزكيتها فرض عين، ولاشك أن النفس الإنسانية قابلة لتغيير صفاتها الناقصة والمذمومة وتبديل عاداتها خصوصاً بالرياضات والمجاهدة ومجاورة الصالحين ومرابطة الصادقين والكينونة معهم وإلا لم يكن فائدة من بعثة الرسول الكرام- عليهم السلام.

٥- الجانب الروحي في حياة الإنسان يمثل إحدى حاجاته الطبيعية التي تبعده عن كثير من الأمراض المادية وتحقق له السعادة في الدنيا والآخرة, وتسمو نفسه إلى درجات الكمال والنماء والرقي، والعبادات التي فرضها الإسلام من صلاة وصوم وزكاة وحج وخضوع كامل للّه هي: الطريق الوحيد إلى السمو الروحي والكمال العقلي، والوسيلة الوحيدة إلى نيل السعادة في الدنيا والآخرة.

وإلى غير ذلك من النتائج التي هي مذكورة في صلب الكتاب أرجو أن تكون مفيدة، وأوصي نفسي والمسلمين جميعاً بمطالعة كتب التصوف والعرفان رجاء نيل الرضوان من الملك المنان.

وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمين، ((رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)) (سورة آل عمران : ٨)

الفهرست

المواضيع	الصفحة
المقدمة	٣
الفصل الاول	٥
الدرس الأول :نشأة علم الأخلاق وتطوره	٧
قواعد الأخلاق وفضيلتها وتعريفها	٧
تعريف قواعد الأخلاق	٨
الدرس الثاني:(أسماء هذا العلم)	٩
الدرس الثالث موضوع علم التصوف وفائدته وأساسه	١٠
الدرس الرابع :علم التصوف من حيث المنشأ	١٢
الدرس الخامس :أولويَّةُ الأخلاق وضرورتُها في الإسلام	١٥
الدرس السادس :اقتران حقوق الإنسان والأخلاق بالإيمان	١٧
الدرس السابع :أصولُ العدل والأخلاق الفاضلة وآثارها	٢٠
الدرس الثامن :أصول الأخلاق الرديئة وآثارها	٢٢
الدرس التاسع :دور الأنبياء في ترسيخُ العدل	٢٥
الدرس العاشر :نظام التوجيه القرآني في الأخلاق	٢٨
الدرس الحادي عشر :واجباتٌ سلبيَّة ومنفيَّة	٣١
الدرس الثاني عشر :الأخلاق باعتبار الظروف المحيطة بها	٣٤
الدرس الثالث عشر :صور من أخلاق النبي–صلى الله عليه وسلم–وأصحابه	٣٦
أولاً التوبة	٣٦
فضائل التوبة وثمراتها	٣٧
أركان التوبة وشروطها	٣٨
ثانياً الصبر	٣٩
أهمية الصبر في الإسلام	٣٩
ثالثاً (الورع)	٤٠
أنواع الورع ودرجاته	٤١
أقوال العلماء في الورع	٤١
رابعاً :(الاستقامة تعريفها وأقسامها ومراتبها)	٤٣

أنواع الاستقامة	٤٣
الفصل الثاني :منهج تهذيب النفس	٤٧
الدرس الرابع عشر منهج تهذيب النفس (الذكر فضله وأنواعه)	٤٩
فضل الذكر	٤٩
الذكر في السنة الشريفة	٥١
الدرس الخامس عشر :الشكر تعريفه وأنواعه وحقيقته وفضله	٥٢
الشكر على ثلاثة أنواع	٥٢
فضل الشكر	٥٢
أمور معينة على الشكر	٥٣
ثمرات الشكر	٥٤
الدرس االسادس عشر :(الحياء فضله وأدلته)	٥٥
أنواع الحياء	٥٥
أقوال العارفين في فضل الحياء	٥٦
الدرس السابع عشر: (التواضع) تعريفه وفضله ومنزلته في الإسلام	٥٧
فضل التواضع	٥٧
والتواضع على ثلاث درجات	٥٧
الدرس الثامن عشر: البذل و الايثار و التضحية	٥٩
الدرس التاسع عشر: قوة الارادة و ضبط النفس	٦١
الدرس العشرون: أمراض القلب و علاجه	٦٤
ادلته كثيرة من القرآن الكريم والسنة الشريفة	٦٤
أقسام الكبر	٦٤
حكمه ومعالجته	٦٥
الدرس الحادي و العشرون :العجب تعريفه ودليله وعلاجه	٦٧
أقسام العجب	٦٧
علاج العجب	٦٨
الدرس الثاني و العشرون: الرياء تعريفه ومظاهره وعلاجه	٧٠
مظاهر الرياء	٧٠
الخاتمة	٧٢
الفهرست	٧٣

.....
.....
.....

.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....
.....